

د.أمل درويش

أحمر شفاه

مجموعة قصص قصيرة

الطبعة الأولى ديسمبر 2020

بطاقة الكتاب

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب	أحمر شفاه
المؤلف	د. أمل درويش
التصنيف	قصص قصيرة
رقم الإيداع	22331 - 2020
الترقيم الدولى	978-977-6835-50-4
رقم الإصدار	661 الطبعة الأولى 2020
عدد الصفحات	90 صفحة
الإخراج الفنى	مؤسسة النيل والفرات

رخصة مزاولة مهنة:58365 - سجل تجاري: - 13242 / 2017 - بطاقة ضريبية: 35-01-572

عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018

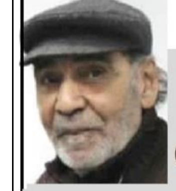
هاتف:01011256943 - 01116202218 - 01202541192 تليفاكس:020554372901

nagyegy200064@gmail.com النيل والفرات

alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat

المقر الرئيسي:ج.م.ع محافظة الشرقية - العاشر من رمضان - مجاورة 13 - أمام سنتر الـ13 - عقار 304

المثالية الجامحة



بقلم
شيخ المثقفين العرب
د. إبراهيم عبد الحميد
رئيس منظمة صدى المستقبل

الكتابة هى المثالية الجامحة التى ولدت من رحم المعاناة الذاتية للمبدع تحوى القيم التى تدور جذورها فى فلك عقله وهى وريثته الشرعية لكينونته الآدمية .. تجمع تأثيرات الحياة الإنسانية وترصد عقلانية نظرته لظواهر الحياة المتنوعة ...فالمبدع الحقيقى يغوص فى أعماق ذاته باحثاًعن إجابة على أسئلة لم تطرح يفهم نشوء وجوده وارهاصات الحياة الاولى وغير ذلك تصبح الكتابة مجرد حفنه كلمات لثرثرة فارغة .

المبدع لا ينتمى



بقلم
الشاعر الناقد
ناجى عبد المنعم
رئيس مؤسسة النيل والفرات

(المبدع لا ينتمى .. وإنما يُنْتمى إليه) انطلقت مسابقة فارس الإبداع العربى من هذه القاعدة لتقدم مبدعا محررا من القيود التقليدية التى تعرقل إبداعاته فنجحت واحتلت المركز الأول عربيا والرابع عشر عالميا لتقدم مبدعا لا إبداعا يستطيع أن يرسم خارطة وطنه بفكر حر دون أية ضغوط تعوقه ، أو رقابة تنال منه ليحقق لقبا خالصا يستحقه عن جدارة هو فارس الإبداع العربى فى نسخته الأولى 2020 مليون مبارك للفائزين

بقلم الأديب المستشار

فوز مستحق لمبدعة كبيرة



أشــرف بـديـر

المشرف العام وأمين عام المهرجانات

لم تكن مسابقة فارس الإبداع العربي التي أقامتها مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع بمصر ومنظمة صدى المستقبل الإعلامية الليبية ، لم تكن مجرد مسابقة أدبية عادية، بل كانت مسابقة أدبية عربية دولية، تنافس فيها أطياف من المبدعين العرب، كل في مجال إبداعه، لذا دنت أعداد المشاركين من الألفي مشارك، وانطبقت معايير المسابقة وشروطها على ما يقرب من سبعمائة مبدع، ثم أفرزت لجان التحكيم من فاز بالمراكز الأولى حتى الثالثة بما يقرب من الخمسين مبدعا في كافة مجالات المسابقة، فضلا عن كونهم من القامات الأدبية العربية السامقة، ذلك ما أهل المسابقة لأن تكون الأولى عربيا وضمن العشر مسابقات دولية في مجال الأدب العربي..لذا ، عندما يفوز أي عمل في تلك المسابقة فإن هذا يؤكد جدارته، حيث مر بعدة مراحل من مراحل المسابقة، فقد مر على لجان المراجعة، ثم على لجان التحكيم، ثم على اللجنة العليا للمسابقة.. من هنا كان هذا العمل الذي بين أيدينا (الفائز بلقب فارس الإبداع العربى) مثارا للفخر للقائمين على المسابقة قبل أن يكون كذلك بالنسبة لمؤلفه، فهنيئا لكم إخوتنا وأخواتنا أساتذتنا المبدعين لهذا الفوز المستحق، ومزيدا من النجاح والتقدم..

رؤية نقدية

الكاتبة الدكتورة أمل درويش تكتب بالوعي.. فالبعض يكتب بالدم والبعض يكتب بالقلب والأحاسيس وقلة تكتب بالوعي؛ فهي مهمومة بقضايا المرأة العربية وحصارها من التخلف، فأغلب قصصها عن وجع النساء في وطنٍ ذكوري جاهل ظالم..

انتظروها في السنوات القادمة؛ فأنت أمام موهبة حقيقية، شديدة الوعي بحركة المجتمع وفن السرد.

الكاتب والمخرج المسرحي

السيد حافظ

القاهرة

إهداء

إلى كل امرأة ما زالت تسبح، وتكافح الموج العالي حولها من كل اتجاه..

لا تيأسي، فالحياة لا تُهدي أحدًا سرها، ولا تمنحه السعادة، ولكننا نجني ثمار جهودنا خلال رحلتنا على الأرض..

إلى كل روح أرادت الخروج عن الصف، لا تتراجعوا فما زال هناك الكثير نجهله، وما زالت كثير من الطرقات تنتظر منا اكتشافها..

د. أمل درويش

إهداء خاص

إلى مُعلمي الراقي المبدع الأستاذ: السيد حافظ

الكاتب الكبير والمخرج المسرحي..

مكثتُ طويلًا في رحلة البحث عن مُعلم يقبلني تلميذته بكل عيوبي وتسرعي وفوضويتي..

وأشكركَ كثيرًا على هذه الفرصة التي منحتها لي لكي أنهل من نهر إبداعك.

د. أمل درويش

مقدمـــة

وكل ما في الأمر أني أردتُ أن أكون حرًّا، أختصر حروفي أو أنقشها سربًا.. يحلّق في فضاء السكون فيشقّ فيه دربًا..

أرسمُ على الشطآن زهرةً وقلبًا، وربما رسمتُ جرحًا غائرًا لا يبرأ يومًا..

نزفُه يملأ القنوات، ويفيض على الوديان، يبكي التاريخ والزمان، ومن عاشوا هنا يومًا..

فلماذا لا تنصفونني؟

لماذا تكتبونني حرفًا وتنثرون فوقه حبرًا؟

تطمسونه وكأنه عورةٌ أو كان عيبًا!!

لماذا صنعتم لي في الخفاء تمثالاً تقدسونه؟

وفي العلن يُشنق ويُقتل رجمًا.. سئمتُ البقاء في عالمكم المرسوم سلفًا..

لا أريدكم لي صحبةً، ولا أريد عالمكم وطنًا.. فعالمي ببراءته ما زال محتفظًا.. وقلبي بنقائه يختال فخرًا..

لملموا ظنونكم واذهبوا عني.. خذوا أغلالكم فقد خُلقتُ حرًا.

نـــــور

ما زلتُ لا أصدق أنني أراكِ اليوم أميرةً متوجةً على عرشك صغيرتي.. "أميرة".

من داخل إحدى قاعات الإسكندرية كان لقاء العائلتين؛ عائلة الدكتور سمير زوجي وعائلة السيد أنور الكاتب الشهير.

وقفتُ بصحبة زوجي نستقبل المدعوين وكنتُ طوال الوقت أشعرُ بنظراته تلتهمني، تهاجمني من كل صوب وحدب وكلما تنقلتُ للترحيب بضيوفنا تتبعني حتى نهاية الحفل.

ما زلتُ أتذكر أول لقاء بيننا، حينما حضر هو وزوجته بصحبة أحمد ابنهما لخطبة أميرة ابنتنا، وأول ما لفت نظره وعلّق عليه تلك اللوحة الزيتية المعلقة على صدر الحائط الأوسط بغرفة الصالون، وتساءل عن مصدرها فأجابه زوجي أنها إحدى لوحاتي؛ فأنا اعتدتُ الرسم منذ صغري وأصقلتُ موهبتي بالدراسة في كلية الفنون الجميلة..

كانت اللوحة لفتاةٍ تقبع على شاطئ بحرٍ تعجز عيناك أن تحتضن أبعاده، تمتزج تموجات فستانها الأزرق بأمواجه المتكسرة على شاطئها الذي استعمرته، وخصلات شعرها الذهبي تتطاير كأنها أشعة هاربة من نور الشمس..

وطلب مني حينها وعدًا برسم صورة شخصية له.

- ما زلتُ أنتظر تحقيق وعدكِ لي سيدتي..

كانت بداية مكالمته في اليوم التالي للحفل..

- بكل سرور أستاذ أنور، حدد الوقت وأنا جاهزة.

بالفعل حضر الأستاذ أنور في الموعد الذي حدده؛ فقد طلب أن أرسمه مباشرةً، وليس من صورة له، بحجة أن صوره الشخصية لا تعبر عن روحه..

كانت شقتنا الفسيحة المطلة على البحر والتي نسكنها منذ عشرات السنوات توجد بها عدة غرف أُغلقت بعد زواج أولادنا نادر ونجيب وسفرهما للخارج يصحبهما زوجتاهما نهى وعبير، وها هي غرفة أميرة سوف تتبعهم في التقاعد بعد عدة شهور حين تنتقل للعيش مع زوجها أحمد في عشهما..

أما هذه الغرفة الصغيرة فقد كانت مكانًا لتجمع الأولاد حين كانوا صغارًا للهو واللعب فيها وبعد عدة سنوات صار لكلّ منهم عالمه الخاص به، وخلت الغرفة من تجمعاتهم، فما عدتُ أجد من يؤنس وحدتي فلجأتُ لفرشاتي وألواني وأوراقي التي ظلت خاوية لسنوات طوال وأسستُ مرسمي الصغير وانطلقتْ منه أحلامي فراشات تحلق على الأوراق.

أما سمير فقد انشغل بمرضاه في المشفى الذي أسسه ومنحه كل وقته، فصارت الشقة خاوية من طيفه لا يمنحها من وقته سوى سويعات الراحة والنوم.

كنتُ أرى في عيون الصديقات نظرات الحسد على هذه النعم التي أغرق فيها، وما كان يشعر بما في داخلي أحد.

كانت "أمينة" مساعدتي في أمور المنزل وتربية الأولاد تعرف كل خفايا الأسرة ولكنها ما حاولت يومًا أن ترفع هذا الستار أو تفصح لي عن إحساسها بما أعانيه..

بينما كان للعيون بيننا حديث لا ينقطع.

وجاء السيد أنور في الموعد المحدد، صافح أميرة وألقى على خدها قبلةً حانيةً بينما كانت عيناه تلقيان بسهامهما نحوي تتفحصني كعادتهما، تبحثان عن خصلة نافرة من شعري تسللت من تحت حجابي، ربما استطاع أن يتأكد ما إذا كانت فتاة اللوحة هي أنا أم أخرى غيري.

- أميرة... أحمد بانتظارك في الأسفل..

هكذا أخبرها خلال مصافحته لها، فهرعت مسرعة..

- سوف أنزل حالًا، أستأذنك يا عمي

انطلقت أميرة للقاء خطيبها وتركتني مع والده وحدي.

- تفضل أستاذ أنور..

بينما كنت أشير بيدي تجاه المرسم.

- -من بعدك سيدتي.. نور

جلس أنور في المكان الذي حددته له، وبدأتُ أُجهز ألواني، وما إن بدأتُ ألطخ فرشاتي بالألوان وأهتك براءة هذا اللوح الأبيض حتى باغتني أنور بكلماته التي أصابت فرشاتي برجفة لم تختبرها من قبل.

- لقد رأيتكِ من قبل.
- متى؟ وأين؟
- في كُليتكِ، بينما كنتِ طالبة وكنتُ أذهبُ إلى قسم الدراسات الحرة وكان لي الكثير من الأصدقاء هناك..
- لا أظن أنني انتبهت..

نور.. هذه الشابة الممتلئة بالحيوية والنشاط وحب الفن الذي يسري في شرايينها، أين هي الآن!؟

بعد عدة لقاءات لم تخلُ من الأحاديث التي اعتادت نور عليها حتى باتت تنتظر موعده بشغف، تقف أمام خزانتها كالمراهقة تبحث بين ملابسها عن قطعٍ لم يرها ترتديها من قبل، ترتدي هذه وتبدلها بتلك، حتى يختفي سريرها تحت كومةٍ من الثياب، ثم تغضب وتنزل لتشتري ثيابًا جديدة بألوان لم تختبرها منذ أن كانت شابة في مقتبل العمر.

توالت زيارات أنور، وزادت وتيرة الموج الهائج الذي يضرب شواطئ نور، يحاصرها من كل جانب حتى أضحى شاطئها مجرد جزيرة صغيرة معلقة بين الأمواج، توجهها كيفما تشاء.

وفي كل زيارة يزيح أنور مقعده عدة سنتيمترات تجاه نور، لعله يختلس نظرة من الصورة التي خطتها أناملها على اللوحة والصورة الأخرى التي خطتها حروفه في صدر نور.

وتغير نبض حديثهما فبعدما كان جهارًا؛ أضحى همسًا..

وتصبح نور بعد زيارته أنثى أخرى، عادت لأغصانها الحياة بعد خريفٍ طويلٍ استأثر بها وأقسم ألا يغادرها، فصار صراعًا حامي الوطيس محمومًا بداخلها.

تحاول نور بكل ما أوتيت من قوة خمسين ربيعًا وأكثر أن توقف هذا الطوفان ولكن هيهات؛ فسدودها التي أقامتها منذ سنوات شاخت وأصابها المشيب، وما عادت تقدر على البقاء

- لا بد أن هناك حل.

هكذا همست نور لنفسها، وبدلت ملابسها وارتدت ثوب النوم الذي طالما أعجب سمير في شبابهما، وانتظرت قدومه..

ساعات وساعات تقاوم فيها شبح النوم وتطرده بفنجان قهوة ما لبث أن فقد تأثيره فألحقته بآخر وقد تأجج الشوق بداخلها.

- تعال الليلة.. أريدك أكثر من ذي قبل، لا تترك هذا الإعصار يلتهمني.. أرجوك..

ولكن لا حياة لمن تنادي؛ وسمير لم يكن يشعر بشئ مما يجول في صدرها؛ فقد ضمن مشاعرها منذ زواجهما وأصبحت ملكه دون شك..

ولم تفلح كل محاولاتها في لفت أنظاره..

استيقظ سمير باكرًا وانطلق إلى عمله، ومن بعده نفرت من سريرها، وقامت لتقف أمام مرآتها " كاتمة أسرارها ورفيقتها في رحلة الصمت".

- ماذا أفعل كيف يفهم أنني أضيع منه؟ كيف يشعر بوجودي؟ هل أصبحتُ في حياته مجرد كرسي أو سرير؟

تعالت صرخات نور المكتومة بداخلها وبكاؤها يبعث صداه إلى آخر ذرة في جسدها المكلوم، بينما تعكس لها مرآتها وجهًا آخر، وجه امرأة ما زالت في ثورة شبابها تنتظر هذا الرجل الذي يعرف كيف يبعث فيها الحياة ويدلل فيها الأنثى التي اهترأت مشاعرها بعدما أحيلت للتقاعد منذ زمن.

- كيف أسمح له أن يقترب؟

وزوجي وأولادي والناس؟

- وهل كان يشعر بكِ أحد؟

- لا، اسكتي.. أنتِ مجرمة..

- وماذا أنتِ؟ طيبة! صالحة!

بماذا نفعتكِ طيبتك وإخلاصك! هاه قولي!

صراعٌ يكاد يهلكها ولكنها ما زالت تصرّ أن تكبت الأخرى بداخلها حتى وإن وصل الأمر أن تقتلها.

ولكن أنور لم يترك لها الخيار، فكان يفاجئها ببعض أشعاره التي يتغزل فيها بحُسنها ورقتها فتذوب كل ذرة في كيانها بينما ما زالت تحافظ على هذا الجذع الجاف يغلف روحها ويظهرها وكأنها عود تيبس، وليس هناك من أمل بعودة الروح إليه..

شهور وهي تقاوم بكل ما أوتيت من قوة، ولا تستطيع البوح لأحد؛ فنصفها يأبى الخنوع والخضوع والنصف الآخر يذوب شوقًا..

جاء أنور في الموعد المحدد ففتحت نور هذه المرة الباب ولم تكن أمينة ككل مرة..

تسمر أنور في مكانه وكأنه يرى فتاة اللوحة قد هربت من على الجدار وجاءته كعروس البحر لتخطفه معها ويغرقان في عالم الخيال..

وها هي نور تطل بثوبها الأزرق وحجابها الأصفر الذي اختلس من شعاع الشمس خيطًا نسجه، وذهبت أمامه إلى المرسم تتهادى في ثوبها وكل خطوة منها تترك في قلبه هدير رعد دون قطرة غيث تروي ظمأه..

وما إن دخلا المرسم حتى أمسك بيدها وقبّل أناملها، وهمسَ لها للمرة الأولى بصوتٍ لم تسمعه من قبل:

أ ع ش ق ك..

هاج قلبها بعدما ضربه الإعصار في مقتل وانفجر البركان ثم انطفأ خامدًا، وسقطت أرضًا..

سقط عنها حجابها وانسكب شلال شعرها الأصفر وحاصرتها أمواج ثوبها الأزرق لتعود فتاة اللوحة إلى الجدار وتسكن هناك أبدا..

حليمة

من يدي تجرني جرًا، شاةٌ مسلوبة الإرادة تُساق إلى حتفها، وربما إلى طريقٍ آخر..

لست أدري بعد، في طريقي تذكرت يوم وقفت خلف الباب أتابع عبر هذا الخيط الرفيع الفاصل بين جذع الباب العتيق الرابض على أعتاب غرفتهما التي تحتل صدر الدار وبين الجدار المهترئ، تترامى إلى مسامعي صرخات أبي في وجه أمي:

- ألا يكفيكي ما حدث لكِ؟

أتريدين أن تكرري بيديك نفس المسلسل؟

- لا شأن لكَ بذلك.. هذه عاداتنا.. منذ متى خرجنا عنها؟ أتريد لنا أن نكون حديث "الكفر"؟ وتصير فضيحتنا على لسان الكل؟

لم أفهم معنى هذه الأحاديث وهذا الشجار الذي استمر لعدة أشهر، وكيف لي أن أفهم وأنا ما زلتُ في الثامنة من عمري؟

استفقتُ على ألمٍ يعتصر يدي محل قبضة أمي عليها وكأنني لصٌّ هارب ألقوا القبض عليه بعد طول بحثٍ وترقب، ومن خلفي سرب إخوتي ينادونني.. حليمة، حليمة..

ولكن صوتهم يبتعد شيئًا فشيئًا حتى يتلاشى كما لو كان صدى صوت من بنات خيالاتي نما..

دخلت أمي إلى حجرتها فوجدت بداخلها الخالة إحسان، تلك التي كانت تزورنا كلما تعالت صرخات أمي وهي تعاني من انتفاخ بطنها، تأتينا ومعها كومة ثياب لا ندري ما بداخلها إلا بعد رحيلها حين نجد طفلًا بجوار أمي..

- ولكنني لا أعاني من أية آلام، وبطني ليست منتفخة يا أمي.. أنا بخير..

لم تسمعني أمي ولا واحدة من تلك النسوة اللاتي تجمعن مع الخالة إحسان..

خالتي وداد وعمتي سعاد وأمي زكية تمسك بيدي..

ماذا سيحدث؟

انتظروا.. انتظروا..

ولكن فات الأوان..

صرختي المكتومة بداخلي لم يكن لها عنوان..

فقد أصروا على سلخ شاتهم قبل ذبحها، وتركوها في بركة الدماء ورحلوا دون رحمة..

على صوت بكاء إخوتي وآلامي المبرحة أفقت..

وليتني ما أفقت يومها، ولا عشتُ بعدها؛ فكيف تعيش الشاة دون جلدها؟

وكيف لها أن تحيا بعدما استباحوا براءتها وقرروا مصيرها؟

ولكنني كأي فتاة في الكفر يجب أن أخضع لشروط الطُهر والعفّة وإلا صرتُ أحمل وصمة الذل والعار طوال العمر.

ومرت سنوات وجرح روحي لا يندمل..

وبعد عدة سنوات لا أدري كم عددها، وقفتُ في ذات المكان أسمع صراخ أبي في وجه أمي، وكأن الليلة أشبه بالبارحة..

- كيف ذلك حليمة ما زالت صغيرة؟ كيف توافقين أختك على هذا الرأي وأنا ما زلتُ حيًّا؟

لم يكن صراخ أبي يصل لمسامع أمي؛ فقد اعتادت قبل كل حوار معه أنت تدس في إحدى أذنيها قطعةً من طين وفي الأخرى قطعةً من عجين..

وخرجت أمي من غرفتهما وهي تطلق الزغاريد، ثم جاءت وقبلتني وهنأتني:

- مبروك يا حليمة زفافك الشهر القادم..

- كيف يا أمي؟ أنا ما زلتُ صغيرة.. أنا.. أريد البقاء معكم، مع إخوتي..

كالعادة لم تصل كلماتي لمسامعها وصوت الزغاريد كان أعلى من همسي، حتى جاءت النسوة ودفعن باب الدار ودخلن يشاركنها بالاحتفال.

مرّ الشهر، وجاء موعد الذبح كما ظننت..

ألبسوني ثوبًا أبيض دليل البراءة والطُهر، وغطوا وجهي بقطعة من "التول" كي تحجب عني الرؤية أو تعزلني عن العالم الخارجي..

وكأنهم لم يكتفوا ببقائي رهينة هذا الدار طوال هذه السنوات الستة عشر، حتى جاءت لحظة خروجي فأبوا أن أنال ولو نظرة خارج عالمي الصغير الذي لم أبرحه منذ عشر سنواتٍ؛ فما إن بلغت السادسة حتى منعتني أمي من تسليتي الوحيدة حين كنتُ أجلس أمام باب الدار لألهو مع صديقات الطفولة..

نخلط التراب بالماء لنصنع عالمًا صغيرًا من الطين..

بيتًا وعروسًا وعريسها يرتدي جلبابه الأبيض ويأتيها على حصانه الأبيض ثم يحملها خلفه ويهربان..

عالم من البياض الناصع لا تشوبه سطوة اللون الأحمر فتهتك براءته وتفض سلامه بعنفوان وشهوة في التسلط.

أين الحصان؟؟

لم أجد حصانًا؛ فلم تكن سوى خطوات تفصل دارنا عن دار خالتي..

لم أرَ حتى شكل الشارع لأعرف كيف تغير خلال السنوات العشر الماضية..

وجذبتني أمي من يدي بنفس القبضة السابقة، ودخلت بي في غرفةٍ يُقال أنها ستكون غرفتي..

وكم كانت سعادتي لأنني سأنعم مؤخرًا بحجرةٍ لي وحدي، وما إن دخلت حتى وجدتُ الخالة إحسان تنتظرني..

هاج قلبي واضطرب، ماذا جاء بها هنا؟

لم أرها منذ هذا اليوم البائس الذي حاولتُ كثيرًا محوه من ذاكرتي ولكنني أخفقتُ بجدارة حتى صار يوم مصرعي..

نعم فقد أفلحوا في صرع روحي وتركوا الجسد خاويًا..

لم تسمع أمي توسلاتي، ولا خالتي ولا الخالة إحسان..

حتى في يوم فرحتي اليتيمة، سلبوني كل الأفراح وما تبقى لي غير الآلام..

جرحٌ غائرٌ بعمق أنثى فقدت روحها للأبد وفقدت آدميتها بعدما صارت دميّة في أيديهم وتركوها في نفس بركة الدماء دون رحمة وصاروا يتهللون ويطلقون صرخاتهم التي أصمت آذاني ويحسبونها زغاريد وما هي إلا أجراس تُقرع معلنةً وفاتي..

ومرت الشهور جسدٌ بلا روح يمضي ويذهب في الدار ولا يرى أمامه سوى أشباح، شبح خالتي التي تتابع عن كثب انتفاخ بطني، وشبح هذا الذي يسمونه زوجي وما كان يومًا سوى آلة تعذيبي وإثارة آلامي..

أبحثُ بين أحضانه عن بقعة حنان أتكوم فيها وأشعر بالأمان؛ فلا أجد فيها سوى أشواك، وكلما دنا أو اقترب آذاني.

وبعد تسعة أشهر انطلق طوفان الألم وصارت بطني تهيج كبركان ينتظر الانفجار ليلفظ ما بداخله..

وجاءت الخالة إحسان لتذبح الشاة بعدما تلذذت بسلخها مراتٍ ومرات..

وأخيرًا ستخلصني من آلامي..

تصول وتجول في زوايا البركان تبحث عن روحٍ بداخله..

ولكنها وجدته خاويًا من أي روح..

فقد فاضت روحانا معًا..

فقد أبت روحي أن تترك ابنتي تعيش نفس فصول المأساة..

إيمـــــان

على حدود المائدة المستديرة التي آثرتُ اختيارها كطاولة لتناول الطعام، خشية الزوايا القائمة التي تُجبرك على اتخاذ القرار، وهروبًا من رأس الطاولة المستطيلة التي يستعمرها صاحب القرار فتصيبه لعنة الكرسي وبرأيه الوحيد يعتد ولا يقبل النقاش.

على وقع ارتطام الملاعق والشوك وحركة السكاكين ذهابًا وإيابًا تمزق أشلاء الطعام يسود صمت الألسنة، فليس لها حاجة للكلام؛ فمهمتها الأولى والأخيرة أن تلوك كتل الشحم واللحم في الفم، تلقي عليها لعنات الصمت وتخلطها بنكهة الألم، ثم تلقي بها في داخل جوف ناله من العطش ما ناله، لا كلمة تبلل جدرانه، ولا همسة تعيد ترتيب سريان الهواء بداخله.

لا شيء هنا بجديد، نفس الأطباق المحايدة الألوان، نفس المفرش ينزوي بعيدًا وقت حضور الطعام، ثم يُعاد إلى نفس المكان في كل مرة، رتابة المنظر تدعوك للغثيان.

ونحن على نفس المقاعد نسكن، نأوي إليها ربما نلنا قسطًا من الأمان.

تغرق العيون في تفاصيل حبات الأرز على الأطباق، ربما تبحث عن حبة ثارت على النظام واختارت الفوضى عنوانها، ربما.

وربما كنا نهرب من اللقاء..

الذي عبثًا حلمنا به، وبذلنا لأجله سنوات من العمر في الشقاء.

أهذا ما كنا نحلم به؟

أنت وأنا والسكوت! وصوت الفراغ لا يموت..

ماتت بداخلنا الابتسامات، وبقيت الصرخات المكتومة..

ألقيتُ بالشوكة من يدي ويميني احتفظت بالسكين، رفعتها ولوحتُ بها في الهواء، لعلني أمزق هذا الحاجز الذي تركناه يكبر ويحتل المكان.

لم تهتم حتى بالسؤال: ماذا تفعل هذه المجنونة؟

أتحارب الهواء!!

للأسف لم تنتبه، ولم ترفع حتى عينيك..

كيف استطاع الصحن أن يأسرك، أعلى صفحته كنت تقرأ تعويذة لم أتمكن من رؤيتها؟

فأصابتك لعنة السحر ونقلتك لآخر حدود الكون؟

أصرخُ.. أنفجر.. أتبعثر..

ثم أفيق من جنوني فأجد لا شيء تغير..

كيف انطفأت لمعة العشق في داخل العيون، وزالت بهجة القلوب وهذا الهيجان الذي كان يصيبها عند اللقاء؟

أتذكر رعشة يديّ حين تسللت أناملك لتحتضنها أول مرة، وسحر أول قبلة، وصراعاتنا لننتصر على الجميع ونحقق حلمنا.

صدعٌ واحد كان كفيلًا بقتل الحلم الوردي؟ وانتقالهما إلى منطقة رمادية تفتقد بهجة الألوان.

كان الجميع يحكي قصة عشق سامح وإيمان، وكفاحهما حتى استطاعا الزواج بعد تحديهما للجميع؛ فسامح مدرس اللغة الإنجليزية غرق في عشق إيمان أخت صديقه أيمن، منذ أن كانت في الإعدادية بينما كانا هو وأيمن يدرسان في كلية التربية.

تخرج سامح من الجامعة وسافر إلى إحدى دول الخليج للعمل هناك كأي شاب يريد الاستعداد لتكاليف الزواج الباهظة، وبالفعل استطاع جمع مبلغ من المال وعاد لمصر ليتقدم لخطبة إيمان..

ولكن والد إيمان رفض بشدة لأن عادات العائلة تقضي بأن تتزوج إيمان من ابن عمها.

- ليس لدي بنات للزواج، إيمان ستتزوج من ابن عمها..

- يا عمي أرجوك وافق.. أنت تعرفني جيدًا وكذلك أيمن، وتأكد أنني سأحافظ على إيمان ولن أخلف وعدي لك أبدًا.

لم يقبل الأب توسلات سامح..

رفضت إيمان أن تتزوج بهذه الطريقة التي عفى عليها الزمن، وساعدها أخوها أيمن في قرارها بعدما علم بموافقتها على صديقه سامح.

ومرت إجازة سامح وما زال والد إيمان يصر على موقفه، فسافر سامح إلى عمله، وأتمت إيمان دراستها وأصرت على الانتظار دون زواج.

ظل سامح يحاول في كل إجازة استعطاف والد إيمان ولكنه كان يرفض بشدة، حتى بعد زواج هاشم ابن عمها الذي يئس من موافقتها عليه.

تزوجت أخوات إيمان الأصغر منها، وتزوج أيمن وبقيت إيمان مع والدها بعد وفاة والدتها، فهي لا تجرؤ على عصيانه، ولا تقبل أن ترضخ لقراره بالاختيار لها.

تخرجت خلال هذه الفترة من كلية الحقوق، وتدربت في مكتب محامٍ كبير في نفس المدينة الصغيرة التي يقطنونها، ثم عملت في نفس المكتب بعدما أظهرت تفوقًا ملحوظًا في عملها.

توفي والد إيمان، وحزنت حزنًا شديدًا عليه برغم كل تعنته معها ووقوفه في طريق سعادتها.

عاد سامح فور معرفته بالخبر.

- أعرف أنك انتظرتَ كثيرًا وما كنت سألومك لو انصرفت وتزوجت.
- كيف أنصرف وأتركك وأنتِ عشقي الأول والأخير؟

إيمان لا تقلقي سأكون بجانبكِ لأعوضكِ عن كل ما مر.

كانت كلمات سامح بلسمًا شافيًا أزال عن قلب إيمان شجن السنين الماضية، وبعد مرور عدة أشهر على وفاة والدها أتما الزواج بمباركة أخيها والأسرة كلها.

عاش سامح وإيمان أجمل عام في حياتهما بعدما استقر سامح في مصر قبل زواجهما مباشرةً، ولكن بعد مرور شهر من العام الثاني وبينما كانت إيمان ترتب بعض الأوراق القديمة وجدت ورقة مطوية وحين فتحتها كانت الصدمة..

صرخت إيمان على سامح:

- ما هذا؟
- هل تفتشين في أوراقي يا إيمان؟
- لا تترك الموضوع الأصلي وأجبني من فضلك!!!

لم يستطع سامح الإنكار؛ فقد كان هذا عقد زواج عرفي جمع بين سامح وامرأة من جنسية عربية أخرى.

التقاها في البلد الذي كان يعمل به وتزوجها هناك.

- أقسم لكِ أنها كانت غلطة، وتركتها قبل رجوعي لمصر بفترة.

- كيف استطعت أن تفعل ذلك وتخفيه عليّ؟

كانت إيمان منهارة ولا تعرف ماذا تفعل..

هل تتركه بعد كل سنوات الانتظار؟ وكيف تلقي عليه باللوم وحده وقد كان والدها هو السبب في هذا التأخير؟ ربما لو كان أخبرها بذلك بنفسه كانت سامحته..

لم تستطع محاولات سامح المستميتة في استرضاء إيمان أن تجدي نفعًا، وبدأ فصل جديد من فصول قصتهما، يكسوه الجليد بقسوة ولا يفسح لهما أي مجال للعودة.

ذبلت أزهار العشق، وزال عبيرها، وخمدت محاولاتهما في إنبات ثمرة لهذا العشق.

وبعد مرور عشر سنوات على هذا الحال، أصبح لكل منهما عالمه المنفصل، وأصبحا يجتمعان فقط على المائدة المستديرة لتناول الطعام.

وما زالا على نفس المقعدين على محيط نفس الدائرة يمارسان لعبة المراوغة بلا مبالاة، فلم يعد هناك منتصر..

توغلت الهزيمة في نفسيهما وسكنتها دون نية في الرحيل، وصارا مجرد جسدين يعبث بهما تيار الهواء كلما هب نسيمه تحركا مثل الستار..

هديـــــل

تكومت على نفسها ببنيتها الضعيفة بين أحضانه القاسية، هذا المقعد الوحيد الذي يحتل ركن غرفة باردة، تلاحمت جدرانها الأربعة بعدما ارتدت اللون الأبيض ثوبًا لعله يشيع في نفوس المرضى راحة ويبعث فيهم أملًا بالحياة، ولكنه بقسوته وبرودته يسلبهم دفء أحضان الأحبة، ويحيي فيهم سيل الذكريات.

هديل هذه السيدة الأربعينية التي تبدو من بعيد كفتاة تجاوزت العشرين ببضعة سنوات، تخفي شعرها الأسود كليلة حالكة دون قمر تحت حجابها القطني الأبيض في تلك الليلة التي أصابتها لفحة من لهيب أيلول، وتخفي جسدها المتناسق الممشوق بسروال واسع أسود وكنزة قطنية نثر عليها الخريف بعض وريقات الشجر التي تخلصت من صراعات الحياة واستقر طيفها بألوانه الترابية على كنزة هديل..

كانت هديل تجلس بالقرب من سرير عمتها "الستينية" ابتسام، بعد أن انتهت نوبة ابنتها بسمة وأنهكها الانتظار على هذا الكرسي وذهبت لمنزلها لنيل قسط من الراحة أو هكذا تظن قبل أن تعاود الكرة وتتبادل الأدوار مع ابنة خالها هديل.

وحدها هديل في داخل هذا الصندوق تستشعر كل معاناة وآلام من مروا على هذه الغرفة وتركوا مسحةً من آلامهم على جدرانها، فضاقت عليها الجدران واختفت كل معالم الغرفة وابتلع النور القادم من نافذتها سرير عمتها وهذه الطاولة الصغيرة التي تحمل فوقها بعض الأوراق ونتائج الفحوصات وتقارير الأشعات الخاصة بعمتها وجميعها تؤكد أنها هالكة لا محالة..

فهذا الوحش الكاسر ينتشر في كل خلايا جسدها النحيل يخطو نفس الخطوات التي خطاها في جسد أخيها الراحل والد هديل، وما أشبه الليلة بالبارحة!

تزاحمت الأفكار في رأس هديل وفاض طوفان الذكريات وطافت روحها في داخل هذا النور الذي بات يغمرها، كانت تبكي بشدة دون أن تسمع نشيجها، ولا تجد له صدى، حتى أخرجتها من هذه الحالة يدٌ تربت على كتفها..

وحين رفعت هديل رأسها من على كفيها التقت عيناهما..

نالت منهما المفاجأة، ولم يكن نصيبه من المفاجأة أقل من نصيب هديل..

- نائل!!

- هديل!!

كانت عينيّ هديل تفيض بالدمع وكانت حباته تنفرط على خديها كاللآلئ مع انعكاس نور النافذة.

فلم يترك قلب نائل فرصةً لعقله ليخبره ماذا يفعل، واحتضنها وكأنه يخفيها في داخله ليحميها من مخاوفها ويزيح عنها همومها، ولم تُبدِ هديل أيّة مقاومة، وتركت نفسها كطفلة تختفي في أحضان أبيها عن العالم كله، وانخرطت في البكاء وكأنها تشكو له أحداث السنوات العجاف التي قضتها ولا تدري كم عددها؟

لم يشعرا بالوقت، ولم يجدا تفسيرًا لما حدث، وربما لم يريدا ذلك قط، حتى أفاقا من تلك الغفوة فترك لها المجال لتبتعد، ثم همس لها بخجله المعهود..

- آسف.. لم أعرف ماذا أفعل سوى ذلك.

حاولت هديل أن تُلملم شتات روحها بعدما بعثرها حضنه ونثر على وجنتيها حمرة الخجل فباتت تنافس جمرة البكاء وتبددها..

وراحت تقطع هذا الارتباك بسؤالها:

- متى جئت؟ وكيف عرفت؟

فرد عليها نائل بهدوء:

- للتو وصلت، تركت حقيبتي في الفندق وجئت إلى هنا مباشرة..

بعدما وصلتني رسالة بسمة وبها عنوان المشفى..

- الحمد لله على سلامتك.

- ظننتكِ بسمة في البداية حتى رفعتِ رأسك..

فلم أتوقع وجودك هنا بمصر..

سكتت هديل ولم ترد، وحاول نائل الاطمئنان على والدته ابتسام ولكنها كانت تحت تأثير المسكنات القوية التي حقنتها بها الممرضة لتقاوم آلامها؛ فلم يجد بُدًّا من الانتظار حتى تفيق وتراه ويمكنه الحديث معها.

كانت آثار البكاء ما زالت واضحة على وجه هديل المنهك، فدعاها نائل للخروج إلى مقهى المشفى لتناول بعض القهوة حتى يزول أثر المسكن عن والدته..

خرجا معًا دون أن ينطق أحدهما بكلمة، عدا إشارة هديل إلى الممر المؤدي إلى المصعد حيث ينقلهما إلى الطابق الذي يشغله مقهى المشفى.

غيّم الصمت على لقائهما لعدة دقائق تاركًا الفرصة للعيون أن تتلاقى وتنثر أحاديثها..

فمنذ آخر لقاء جمعهما منذ عشرات السنوات، تفرق كل منهما في طريقٍ ولم يكتب لهما اللقاء حتى هذه اللحظة.

كانت البداية حين سافرت العمة ابتسام مرافقة لزوجها الدكتور عصمت في رحلته إلى إنجلترا لدراسة الدكتوراه، حُرمت هديل من لقاءاتها بنائل، وترك خلفه ذكريات لهوهما سويًا وهم أطفال صغار في عمر البراءة..

ظلت أسرة الدكتورعصمت الجراح الشهير تعيش في إنجلترا، وبعد أن انتهى من دراسة الدكتوراه طالبته زوجته ابتسام بالعودة لمصر كما اتفقا ولكنه حظي بفرصة عمل جيدة هناك..

- كيف تريدينني أن أخسر هذه الفرصة؟
- في مصر يمكنك أن تجد الكثير من الفرص وأن تُدرِّس بالجامعة هناك..

هكذا ردت عليه ابتسام، فضحك متهكمًا، ورد عليها:

- وماذا سأتقاضى عن ذلك؟

ألا تعرفين قيمة راتب الجامعة الهزيل؟

وهل لعاقل أن يترك فرصة العمل هنا ليعود إلى العمل وسط مجموعة تحارب كل ناجح وتعيقه ليبقى في مستنقع الفشل مثلهم؟

قرر الدكتور عصمت البقاء في إنجلترا، والعمل في مستشفى كبير هناك وكان نائل حينها يدرس في المرحلة الثانوية، وقد خطط له والده مستقبله وحدد له الجامعة التي سيدرس بها ليسير على خطوات والده..

فما كان من ابتسام إلا أنها أصرت على العودة إلى مصر لتربي ابنتها بسمة هناك بعيدًا عن عادات الغرب المتحررة، خاصة بعدما باتت تسألها أسئلة لا تتناسب مع سنها بينما ما زالت في عمر العاشرة، ولكن في مجتمع منفتح يتحرر من كل القيم والتعاليم الدينية لا يمكن توقع ما تراه الفتاة في مدرستها وبين زملائها وربما حتى من مدرسيها.

وعانت ابتسام نوباتٍ من الهلع كلما شاهدت حوادث العنف، وانتشار المخدرات بين الشباب والصغار والشذوذ الذي أصبح على مرأى ومسمع الجميع دون عقاب..

- ماذا أنتظر؟ أن تأتي بسمة وفي يدها صديقها؟ أم صديقتها؟

سأعود إلى مصر أنا وابنتي..

وبالفعل انفصلت ابتسام عن زوجها عصمت الذي رفض عودة نائل معها، فمستقبله في إنجلترا ينتظره كما رسمه له ، وترك لها بسمة لتعود بها كما أرادت.

وعاشت ابتسام في مصر يدعمها أخوها المهندس نور الدين وفتحت صيدلية خاصة بها لتعيش هي وبسمة حياةً منفصلة وينتظران مكالمة هاتفية كل فترة من نائل ليطمئنهما على أخباره.

وربما زارهما مرة كل عدة سنوات.

أما هديل فقد تبدد حلمها الصغير؛ فحينما كانوا صغارًا كان جميع أفراد الأسرة يقولون: "إن هديل لنائل ونائل لهديل" في تلميح وتصريح بزواجهما مستقبلًا، حتى بعد سفر نائل وأسرته ولكن بعد عودة العمة ابتسام وبسمة دون نائل تبدد هذا الوعد وصار في طور العدم.

تخرجت هديل من كلية الصيدلة هي وبعدها بعامين تخرجت بسمة من كلية الهندسة ، وتزوجت هديل من الأستاذ صبري المحامي الذي يعمل في عُمان، وسافرت معه إلى مقر عمله..

مرت عشر سنوات، أصبح صبري مستشارًا لشركة كبرى، كانت أسعد السنوات في عمر هديل، لم يكن ينغصها سوى حرمانهما من الإنجاب، على الرغم من تأكيد كل الأطباء على عدم وجود ما يمنعهما.

عاد صبري وهديل من عُمان للاستقرار في مصر، وزادت تدخلات أهله في حياتهما؛ وفي لحظة انكسار وعطف من هديل لمّحت لصبري في عدم ممانعتها لزواجه بأخرى إذا كانت هناك فرصة ليصير أبًا.

وبرغم حب صبري لهديل وتعلقه بها وعدم إبداء أي تأثر بحرمانهما من الأطفال طوال السنوات الماضية؛ إلا أنه في لحظة أنانية منه تعاظمت فيها رغباته فأخفت حبه، وأنسته كل لمسات هديل الحانية وكل عشقها له وتدليله طوال سنوات زواجهما..

نسي كل ذلك وقرر خوض التجربة.

ولم يخبر هديل بكل ذلك، ربما خجلًا من فعلته، وربما لأن ما كان يضمره لها بقلبه لم يكن حبًا، بل كان شهوة تحركه نحو جسدها ليس أكثر، وما أسهل إفراغ هذه الشهوة في مستودع آخر.

علمت هديل بزواج صبري عن طريق أخته ، وكانت صدمتها فيه قاسية، انهار من فوق رأسها عرش شيده لها طوال السنوات العشرة، وتوجها ملكة عليه؛ فلماذا هدمه في أول اختبار؟

دخلت هديل غرفة نومها ووقفت أمام مرآتها، تنتزع ملابسها قطعة قطعة، تبحث في جسدها عن عاهة أو بقعة مظلمة تنفرّه منها ليبحث عن النور في غيرها..

ليس ذنبها أن الله لم يُقدّر بعد أن يرسل لهما رزقهما في الذرية، فقد أرسل لهما ما يكفيهما من الرزق في المال والصحة والعافية.. ربما لم يحن بعد رزق الأطفال!!

حطمت هديل المرآة، ربما كانت كاذبة تخدعها، وتخبرها أنها جميلة الجميلات بينما هي في الحقيقة قبيحة دميمة..

تشظت صورتها في المرآة آلاف المرات، نساء كثيرات تجمعن في وجه هديل..

لم تلمح في أية صورة منهن لمحة قبح، أو خِصلة مذمومة.

لم تستطع هديل البقاء مع صبري، وفضلت الانفصال، كي يعيش حياته كما اختار، ويترك لها حرية الاختيار.

ولكن أي اختيار بعدما سقطت من وريقات شجرتها أربعون ورقة؟

ترى كم ورقة باقية!؟

عملت هديل مع عمتها في صيدليتها لكي تشغل وقتها بعدما كان صبري يشغل كل تفكيرها وحياتها.

وأما بسمة فقد عُينت معيدة بالجامعة وتزوجت وأصبحت الآن أستاذة بالجامعة.

وقد ربطتهما هي وهديل علاقة صداقة وأخوة لم تتأثر بسفر هديل أو زواج بسمة.

بدأ نائل حديثه مع هديل في المقهى، محاولًا أن يلتقط من كلامها أية إشارة تفتح له مجالًا للحديث عن الماضي، بعدما تفحص أصابعها فوجدها خالية من خاتم الزواج؛ فآخر ما وصل إليه من أخبارها نبأ زواجها وسفرها، وبعدها لم يزر مصر ولم يذكرها أحد أمامه.

وحين أخبرته بما حدث لها اندهش..

- كيف مرت خمس سنوات وأنتِ في مصر وتعملين مع أمي في نفس الصيدلية دون أن أعرف؟

فأخبرته أنها طلبت من والدته ذلك.

- لماذا يا هديل؟

- لم أود أن أشغلك بأخباري، وعرفتُ أنك تزوجت من بريطانية.

هنا ثار نائل ولكنه انتبه لوجود الناس من حولهم فعاد وهدأ..

- لقد تحدثت مع خالي "والدك" في إحدى زياراتي لمصر وطلبت منه أن يبارك زواجنا، ولكنه رفض، وأخبرني أنه لا يريد أن يعيد مأساة أخته، وتصبحين مثلها وتعودين له بطفلة كما عادت.

ردت هديل والدهشة تعلو وجهها:

- هل قال لك ذلك والدي؟

- نعم، وسافرت بعدها وعرفت بزواجك ولم أعد لمصر ثانيةً..

خيّم الوجوم على وجهيهما، ولم ينطق أحدهما..

كيف يتحكم الآخرون بحياتك، يسيرونها كما يشاؤون، دون حتى أن يعلموك بما اختاروه لك؟!!!

كيف يسلبك الجميع حُريّة الاختيار، ويوهمونك بأن القرار لك؟!

احتسى نائل وهديل القهوة وعادا لغرفة الدكتورة ابتسام، ووقفا بجوار سريرها، ينتظران إشارة من جفنيها تبعث الأمل بعودة الوعي إلى عقلها..

- أتراها تشعر بنا الآن؟

تساءلت هديل بصوت هامس سمعه نائل فردّ عليها:

- ربما، قد تسلب المسكنات القوية من الأعصاب القدرة على الحركة، لكنها ربما تخفق في تحقيق هذه السيطرة على الإحساس..

مد نائل يده ليبسطها مهدًا ليد هديل، فدست أناملها الرقيقة فيها دون كلام ثم أطبقها عليها بحنان، وكأنه أراد أن يبث عبرها أشواق السنوات الغابرة.

لم يستطع حينها أن يخبرها بأنه ترك زوجته البريطانية بعد شهرين فقط من الزواج، فلم يستطع تقبل تحررها، وتخيل حاله معها بعد عدة سنوات، حين يثمر زواجهما أطفالًا فيعجز عن تربيتهم على عاداتنا الشرقية، وحينها تذكر والدته وتضحيتها باستقرارها وسعادتها من أجل أخته بسمة لكي تربيها تربية صالحة بعيدًا عن هذا المجتمع الفاسد..

ولم يكن الوقت مناسبًا لكي يخبرها أنه منذ ذلك الوقت يعيش وحيدًا لا يشاركه في الحياة سوى طيفها وذكرياتهما معًا.

أحمر شفاه

خلف نافذتها كانت تتابع تساقط حبات المطر المتلألئة درّا يطرق زجاج نافذتها فتنفذ طرقاته إلى قلبها المضطرب لعلها تُعيد إليه رتابة خفقه بعدما هاج موجه واضطرم..

تمتد يدها المرتعشة لتلتقط فنجان قهوتها فتذكرها بنفس الرعشة التي سرت فيها حين امتدت يده المحملة بلهيب الصيف وقيظه لتلامس أناملها التي اجتمعت فيها أصقاع قطبي الكرة الأرضية حتى باتت لا تشعر بها، غير أن هذا السلام كان بمثابة نزوة شتوية عانقت فيها غيومها الباردة غيمة صيفية حارة حاصرتها واحتوتها فأطلقا معًا شرارات البرق..

هذه الومضات التي غزت سماءها الصافية الخاوية من أي مشاعر غير هذا الفراغ الذي يملؤها وتنتظر من يأتي ليشغله.

هدير الرعد لم يكن كافيًا ليخفي دقات قلبها المتسارعة، تنقبض فتمنع عنها سيل الذكريات وتحيلها لورقة يابسة بلا روح مكومة على رصيف العشق، ثم تعود إليها شهقة الحياة بنفخة من رياحٍ خماسينية تعيدها بقسوة لمضمار لطالما كانت فيه الأخيرة..

فلم تكن يومًا تمتلك تلك الكلمات المنمقة المزينة بأكاليل الود، ولم تكن تدري كيف تُحرر هذه الحروف الأسيرة بداخل قفص تحفُّظها اللعين..

وبئر الأمنيات الذي لطالما رجمته بحصا اللوم كي تطفو أمنية وحيدة بداخله فتلتقطها وتلقي بها في وجه الأيام.. أريد هذا العاشق الذي رأيته في المنام!

- ما بكِ غاليتي؟
- لا شيء..

كانت ترد وعيناها من عينيه تهربان، تتابعان سيول الأمطار من خارج زجاج النافذة..

في أول لقاء لنا، وما إن شاهدت المطر كانت جلّ أمنياتي أن أخرج وأتحرر من هذا الحذاء اللعين الذي منحني عدة سنتيمترات إضافية لألامس في الهواء ظله؛ فلا يدرك قصر قامتي حين نعبر الشارع معًا..

كيف أخبره برغبتي هذه؟ فسوف ينعتني بالمجنونة ويخبرني أنني ما زلتُ طفلة..

- فيم تفكرين عزيزتي؟
- لا شيء..
- أعلم بماذا تفكرين..

تضطرب دقات قلبي أكثر، فما زلتُ لا أستطيع السيطرة عليها، ماذا أفعل؟

- تريدين الخروج تحت المطر!
- كيف عرفت؟
- -قرأتُ لغة عينيك يا مولاتي..

ثم جذبني من يدي بعدما ترك بعض النقود على طاولة المقهى..

وخرجنا مسرعين، فقال لي:

- هيا تحرري من هذا الكعب الذي يوئد طفولتك، حرريها لا تخجلي..

كانت هذه اللحظات بمثابة يوم ميلادٍ لا أظنني سبق وعشتُ قبله..

لم يكن هناك الكثير من المارة فالكل كان يخشى البلل، عدا اثنين عاشقين لم يهتما لهذا الأمر، كل ما أراداه أن يعيشا اللحظة ويستمتعان بكل ثانية فيها، لعلها تكون الأخيرة.. من يدري!

بعد كثير من الوقت الذي مرّ علينا كلمح البصر، انتصرت غيمة الصيف واحتوت غيمة الشتا وأوقفت نحيبها وبكاءها على الأيام الخوالي التي قاست فيها البرد وحدها..

وأطلقت الشمس أياديها تلملم برد القلوب وتحنو عليها وتمنحها بعض الدفء..

لفّ ذراعه حولي وأبعد بعض القطرات العالقة على جبيني ثم أخرج منديله الذي ظل جافًا رغم هذا الشلال الذي غمرنا؛ فجفف به وجهي ثم همس في أذني:

- ما أجمل وجهك بلا مساحيق، تبدين كطفلة للتو استيقظت من النوم..

وابتسم..

- سوف أذهب غاليتي للحرب؛ فهل ستنتظرينني؟
- نعم.. سأنتظر..
- لا أدري متى تنتهي..
- لا يهم، حتمًا ستأتي..

تترك بعض أنفاسي الساخنة مما تركته رشفة القهوة فيها من بعض الدفء أثرها على زجاج النافذة التي احتارت من هذا الفصام الذي أصابها، كيف تكون بوجهين؟

أو وجه ذو نصفين!

نصف يذوب عشقًا، تلتهب بداخله جذوة الشوق، ونصف كلوح الثلج، من فيهما ينتصر؟

تمتد سبابتي لترسم على هذا البخار المتكاثف على الوجه الملتهب صورة قلب وبداخله اسمه..

بعض الحروف المتشابكة يسبقها حرف وحيد لم يجد له مكانًا بينها، كان هذا الحرف هو أول حروف اسمي، كعادتي أقف وحيدة في بداية الحكاية ولا أجرؤ على خوض المزيد من التجارب أو اختبار ماهية الحكاية..

ودون أن أشعر وبحركة لا إرادية تمتد أناملي لتمشط خصلات شعري المنسدلة، الجزء الوحيد مني الذي يمتلك الحرية..

يبدو ترتيب الخصلات كما هو منذ سنوات كثيرة لم أحصيها ومنذ ذلك اليوم الذي امتدت أنامله لتهدهد خصلاتي وتتهادى بينها، ترفعها حينًا وتهبط بها في انسيابية اكتسبتها من نعومة شعري الحريري وأنا ما زلتُ غارقةً في خجلي أول صباح استيقظتُ فيه بجواره..

- -مم تخجلين؟ أنتِ مولاتي.. زوجتي ودرة تاج عرشي..

يثور الكروم على وجنتيّ ينتظر من يقطفه ويعتقه، بينما ينثر قبلاته عليهما فيبعث نداها الروح في أزهار الربيع الغافية.

غير أن هذه الوجنات أصابها الجفاف فذبلت أزهارها بعدما تشققت وديانها، وأناملي اليوم تعاني قسوة هذه الخصلات، فهذه الشعيرات البيضاء العنيدة تُصر على أن تنمو متنافرة، فرغبتها في الحرية أقوى من رغبتي في الحفاظ على ترتيبها، ومهما حاولت ترميم شروخ الزمن التي تركها على قوامها ومنحتُها بعض الصبغات لتبدو كما كانت في شبابها، ولكن هيهات!!

وها هي آخر قطرات القهوة قد فقدت دفئها وفقدتُ شهوتي لها ككل شيء من حولي..

حتى زجاج النافذة قد انتصرت برودته على حرارة أنفاسي المصطنعة وتخلى عن رسمتي، وغاب بصيص الضوء القادم من الخارج حين انعكس ضوء المصباح الخافت من خلفي عليه فصار أشبه بمرآتي التي احتضنت طيفانا معًا، بعدما كانت تعكس صورتنا وذراعاه تحتضنان جسدي الصغير فتغمرانه في نهر الحنان.

وصرتُ أرى طيفها.. مجرد شبح لأنثى كانت يومًا تحيا هنا، والآن لم يتبقَ منها سوى هذا الطيف.

لم تكن مرآتي أفضل حالًا مني؛ فقد أصابها الوهن وخطوط الزمن حفرت أخاديدها على وجهها مثلي فصارت كلتانا تخشى لقاءها بالأخرى.

ثلاثون عامًا لم يتغير شيء خلالها، نفس الدوائر..

آخر رغيف خبز تقاسمناه، آخر أسطوانة سمعناها، وها هو "فرانك سيناترا" ما زال يهمس بصوته الحنون:

Sway with me..

الأغنية التي كنتَ ترددها على مسامعي وتراقصني على أنغامها كل ليلة..

وذراعاك يطوقان خصري في دائرة أخرى..

وها أنا أجلس أمام طاولتي المستديرة وما زلت أتنفس دخانك؛ فكلما انفردتُ بقهوتي أشعلتُ سيجارك فيلفظ دخانه ليحيطني بحنانك.. يعيدني لذكرى قبلاتك المحملة بنكهة الدخان، وكيف كنتُ منها أتذمر؛ فتلاحقني بقبلة أخرى، بينما تبتسم حين يلطخ أحمر شفاهي شفاهك..

مرت سنوات وأنا ما زلتُ أنتظر هذه القبلة التي منيّتني بها حين تصل، ولم أمنحها حتى الآن سوى لفنجان قهوتي، ويبقى أثر أحمر شفاهي مطبوعًا عليه ينتظر قدومك ليتنازل لك عن هذا الأثر ولكنك لم تأتِ بعد..

انتهت الحروب وعاد الجميع لأحبتهم بسلام، وما زال قلبي يخفق كلما زرته في المنام، يهديك ألف قبلة وحينما أستيقظ أجد وسادتي قد تلطخت بأحمر شفاهي ولا أجدك..

عتـــاب

كما كنا هنا من قبل، لا أدري متى، ربما منذ شهر أو حتى دهر، لا أشعر بالفرق.

غير تلك الشعرات البيضاء التي استغلت انشغالنا في يوميات لا تُذكر واحتلت رؤوسنا، كنتَ دائمًا تخبرني أنني لن أكبر وسوف أظل في عينيكَ أصغر.

كنتُ أضحك وأقول لك: النساء لا تكبر، فكل امرأة حين تستيقظ في الصباح أول ما تفتح عينيها تلقي بنظرة على المرآة لتشكر هذا الرجل المجهول الذي اخترع الصبغات والمساحيق والألوان لتستعير فرشاة الرسام وتضرب بها فتمحو تلك الرتوش والخطوط التي نقشها على وجهها الزمان ليلًا.

ولكن هل لها بفرشاة أخرى تبدد ما ألقاه الفكر في قلبها شجنًا؟

تبتسم ابتسامة هادئة على عكس صخبي وجنوني، وتخبرني أنك تمتلك هذه الفرشاة على أطراف شفاهك، فتمسك بأطراف أناملي وتلقي عليها بعضًا من عطفك، فأعود فتاة في العشرين، لا شعر أبيض، لا خطوط تجاعيد، لا يأس، ووحده الأمل يسري في الشرايين.

تهمس لي بحروف العشق: أ ح ب ك

فأغرق في خجلي وتضرب الحمرة وجنتاي بلا مساحيق وأراني صرتُ أجمل..

القلب العنيد يصر أن يحتفظ بالتفاصيل يذكرني بغيابك، يوم أخبرتني بأمر الرحيل وأنه مؤقت..

- سأغيب لبضع سنوات، أعود بعدها غصنًا أقوى، فالفروع الرقيقة لا تتحمل رياح الخريف وصقيع الشتاء، سأعود لنؤسس أسرة صغيرة تواجه إعصار السماء..

غبتَ كثيرًا، مرّ صيفٌ وشتاءٌ، عشراتُ الأعوام، حتى شاخت الفروع وأصابها الجفاف، وما عادت تقوى على تقلبات الحياة وأحوالها.

والغصنُ صار وحيدًا كلما زاره عصفورٌ عانى جفافه وتألم.

- عفوًا..

سامحيني..

الغربة لا ترحم، وكلما ظننتني أتقدم غاصت قدماي في الرمال وصرتُ أسيرًا أكثر فأكثر.

واليوم جئتك ببقايا جسدٍ منهك وقلبٍ لم يعرف سواكِ طول الحياة.

لم يعرف قبلك، وتعاقبت عليه الفصول فلم يجنِ من ربيعها زهرةً ولم ينعم بنسيمها يومًا.

- أبعدَ هذا العمر نلتقي ثانية!

وماذا بقي لنا من فصول لنحياها معًا؟

فتقاطعني قائلًا:

- ما زال هناك الكثير مولاتي، وإن بقي في العمر يوم لمَ لا نحياه ربيعًا فيكون آخر عهدنا بالحياة فرحا..

نــــدى

دون أي إحساسٍ بالإثارة أو ذاك الشغف الذي يملأ قلبك، ويدفع في شرايينك ملايين الجزيئات من الأدرينالين ليخفق قلبك بسرعة دقات قلب عصفور صغير يحلق سعيدًا منتشيًا بلذة الحرية وقدرته على اجتياز الحواجز والحدود، كانت خطواتي تتباطئ وكأنها تريد العودة من حيثُ أتت..

اجتزتُ كل الحدود والحواجز في محطة قطار الإسكندرية متجهةً نحو مسار القطار، بانتظار الموعد المحدد للانطلاق في رحلةٍ مجهولة الهوية وكأنني للتو ولدتُ وهذا أول عهدي بلقاء البشر.

على الرصيف الذي يبدو هادئًا وكأنني أتيتُ مبكرًا، كان هناك بعض المسافرين ينتظرون بتملل، بعضهم ينظر في ساعته، والآخر منشغلًا بهاتفه والقلة يتسكعون برفقة بعضهم..

وقفتُ ومعي حقيبة صغيرة لملمتُ فيها أحزاني الكثيرة وبعض الملابس القليلة؛ فالجو في أسوان كما عرفت دافئًا، لا يسمح لبرودة شتائنا هنا في الإسكندرية بغزو أطرافه.

ولكن هل سيستطيع دفء حضنه أن يصل إلى قلبي ليهزم الجليد بداخله؟

أحسستُ حينها بالفراغ الذي يسكنني وكأنني نسيتُ طعم الكلام على لساني، فشغلتُ نفسي بالنظر للرصيف المقابل لعلني أجد ما يصرفني عن هذا الإحساس.

أتأمل وجوه الناس، أبحثُ فيها عن وجهٍ أعرفه، أُفتش عن ابتسامة ضاعت مني منذ سنوات، عن حنين أو ذكرى تخطفني، عن خيطٍ يربطني بالحياة.

كان هو هناك..

نعم إنه هو، حين التقت عينانا صدفةً سرتْ في قلبي قشعريرة لم أعتد وجودها، واهتزت أوصالي وارتجفت وكأنها كانت تحارب الوهم وتدفع السراب، ولسان حالها يخبرني أنه مجرد خيال.

عاود النظر من جديد بعدما دقق هذه المرة نظرته ثم أشار بيده ملوحًا..

نعم إنه هو ويلوح بيده لي وليس لأحدٍ غيري.

ثم اختفى بين المسافرين وكأنه لم يكن بينهم وكأنني كنتُ أراه في خيالي فقط.

لحظات مرت كالسنوات ثم سمعت اسمي كما لم أسمعه من قبل:

- ندى..

همس من خلفي وربت بيده على كتفي فاستدرت مندهشةً؛ مَن هنا يعرف اسمي؟

- عبد الرحمن!!!

نعم لم يكن خيالًا، إنه هو عبد الرحمن..

ونسيت كل سنواتي الماضية بينما يدي سكنت بين أنامله وارتاحت في أحضان كفه، فعادت طفلة صغيرة طالما أحاطتها يداه.

انزوينا في أحد الأركان بعيدًا عن رصيف القطار وسألني كيف حالي وكيف صارت دنياي.

كان منزل جدي المُلتقى لكل أفراد العائلة حيث كانت لقاءات والدي وابن عمه وأسرتيهما وكانت لقاءاتي بعبد الرحمن، وأسعد الأوقات حيث كان يكبرني بعدة سنوات وكثيرًا ما كنا نقضيها في لهو الصغار.

ولكن بعد وفاة جدي لم نعد نلتقي ورحل ابن عم والدي عن الإسكندرية ولم نره ثانية هو وأسرته.

- كيف حال عمي مصطفى؟

همس عبد الرحمن؛ فأخبرته بوفاة والدي منذ أكثر من عشر سنوات، لازمتُ فيها والدتي ولم نفترق حتى وفاتها منذ عدة شهور.

لم يكن غياب والدتي سهلًا فقد كانت تشغل كل حياتي بالإضافة لعملي كطبيبة.

وبعد وفاتها أصابني الاكتئاب ولم أتحمل مواجهة الحياة وحدي، فنصحني أصدقائي بالذهاب لهذا المؤتمر الطبي بأسوان، واختاروا لي السفر بالقطار لأمضي وقتًا أطول بالرحلة وأستمتع بمنظر المسافات التي يقطعها القطار بينما ينطلق فيها خلال مدن لم أرها من قبل..

أخبرني عبد الرحمن أنه سافر للدراسة في إيطاليا حيث كان يدرس فن العمارة والنحت، وبعد انتهاء الدراسة فضّل البقاء هناك ولكنه أتى في زيارة سريعة وسوف يعود بعد شهر.

انطلقت صافرة القطار تعلن عن قدومه إلى الرصيف، فصعدنا معًا إلى القطار وحمل عني حقيبتي، ولكم أردتُ أن يحمل عن قلبي همومه ويزيحها!

جلسنا نتبادل أحاديث الذكريات، وكان عبد الرحمن يذكرني بألعابنا وكيف كنا نقضي يوم الجمعة في اللهو واللعب، فقد كان أصغر إخوته وكنتُ وحيدة دون إخوة فكان هذا اليوم هو يوم عيدي الذي يتكرر كل أسبوع، وكم كنا نحزن في نهايته ثم نذهب على أمل اللقاء في الأسبوع القادم.

تذكرتُ حينها كيف كان فارس أحلامي الذي طالما ظل يزورني في منامي لسنوات بعدها، حتى تلاشى طيفه من أحلامي تدريجيًا فما عاد يزورها بعدما طال الغياب.

وكيف كانت محاولات والدي ووالدتي لإقناعي بالموافقة على الزواج.

لم أكن على يقينٍ بأننا سنلتقي ثانيةً ولكنني تمسكتُ بخيط الأمل.

- ندى!

قطع صوت عبد الرحمن أفكاري فأعادني لواقعٍ طالما تمنيته، وانتظرتُ هذا اللقاء.

- هل تزوجتِ؟

فاجأني بسؤاله ولكنني أخبرته بأنني لم أتزوج لانشغالي بعملي، وبرعاية والدتي أثناء مرضها بعد وفاة والدي.

كان السؤال على طرف لساني لكنني لم أجرؤ البوح به، تمنيتُ لو أخبرني من تلقاء نفسه وظلت عيناي تتفحص أصابعه وقلبي يرجو ألا تجدان شيئًا، ولكن عدم وجود خاتم الزواج لا يعني أنه لم يتزوج؛ فالكثير من الرجال يكره ارتداء خاتم الزواج حتى لا تنقطع عنه سيول نظرات المعجبات.

ظل طوال الرحلة يتحدث عن دراسته وعمله في إيطاليا وكيف تغيرت مصر خلال فترة سفره، ثم نظر إليّ بإعجاب وقال:

- أنتِ كما كنتِ بل أجمل، لم تمنحكِ السنوات سوى المزيد من الجمال، أما أنا فقد تغيرت كثيرًا..

وابتسم بعدما تحسس رأسه التي خلت من الشعر سوى بعض المناطق التي تعمد حلاقته منها كي تبدو رأسه متناسقة خاوية من الشعر.

ولكنه لم يستطع إخفاء المشيب من شعر لحيته التي أطلقها في شكل زاد وسامته أكثر مما كانت.

كانت عيناي تتحاشى لقاء عينيه، فيُفتضح أمري، وكنتُ أخشى أن ينتبه لضجيج دقات قلبي التي كادت تشق صدري لتصرخ وتخبره..

كم أحببته طوال هذه السنوات!

وبينما أهرب للنظر عبر زجاج النافذة لأرى القطار يأكل المسافات كما أكل الزمن سنوات الشباب..

يتكرر ذات السؤال في ذهني وكل جوارحي تتمنى أن تكون إجابته بالنفي.. أتراه تزوج من امرأة إيطالية ككل من يسافرون هناك؟

تنتفض شراييني فأدعوها للهدوء كي لا يبدو على وجهي السؤال.

تمنيتُ لو رافقني في رحلتي حتى أسوان ولكنه أخبرني أنه سينزل في محطة القاهرة.

لا أمل في بقائه.

تناولنا كوبًا من الشاي، وكلي رجاء بأن تهدأ الأسئلة الحائرة في داخلي، حتى أخرج حافظة نقوده ليدفع حساب الشاي فلمحتُ صورة طفلة فيها، وحين ذهب النادل أخرج الصورة ليريني إياها.

- ثاندي.. ابنتي.

همس باسمها فلم أجد ما أقوله وتجمدت الدماء في شراييني بعد ساعات من فورانها، وابتسمتُ ابتسامة باردة وأشحتُ بوجهي تجاه النافذة كي أخفي ما أصاب روحي من جمودٍ بعد ثورة.

أعاد الصورة للحافظة ثم استكمل حديثه..

- تزوجنا أنا و نيلسي حين كنا زملاء بالجامعة وحملت بثاندي ولكن جسدها كان ضعيفًا ولم يتحمل وتوفيت أثناء الولادة.

واستطرد في حديثه بينما تستعيد روحي حرارتها التي فقدتها تدريجيًا مع كلماته التي هدأت من روعها..

- كانت أولى صدمات حياتي ولم أعرف كيف أربي هذه الطفلة الوليدة فأحضرتها لأمي وعاشت معها هنا.

ما زلتُ شرقيًا ولا أحب لابنتي أن تتربى في هذا المجتمع الغريب عنا في العادات والطباع.

عاد الأمل من جديد يغزو قلبي فيعيد له النبض والحياة، ولكنني اكتفيتُ بسماعه ولم أملك الرد.

اقتربنا من محطة القاهرة فكاد قلبي أن ينخلع من مكانه، فكيف سيمضي ويتركني لأعود لوحدتي من جديد!

وصل القطار لرصيف محطة مصر، فلم أستطع إخفاء دموعي وسالت على وجنتيّ فأمسك بيدي فظننته سيودعني ويذهب، ولكنه رفعها لشفتيه وقبلها وقال بصوتٍ هادئ وحنون:

- وحشتيني..

لم أعرف بماذا أجيبه وقد تملكني ذات الشعور،

فقال قلبي ما لم أجرؤ البوح به.

- -وأنا أيضًا اشتقتُ كثيرًا بحجم كل سنوات البُعد..

حينها فقط أحسستُ بأنني في العشرين من عمري وضرب الخجل وجهي فاحمرت وجنتاي.

لم ينزل واستمر بجانبي ولم يرفع عينيه عن عينيّ، ويداه تحتضنان يديّ، وكأننا نريد أن نمحو كل السنوات الماضية ونعيد تسطير الذاكرة بأحداث جديدة يملؤها العشق ويرويها الود.

ثم أخبرني بأنه سيبقى معي حتى المحطة الأخيرة من العمر.

شرفة الأمل

ككل صباح يُقلني أحدهم من داخل غرفتي التي آلفتها وألفتني بين أحضان هذا المنزل العتيق _الذي لم يشفع لي ارتفاع سقفه أن أُحلّق في سمائه_ إلى الشرفة الكبيرة المطلة على الحديقة الخلفية، تتسلل إلى جسدي النحيل بعض الأشعة الدافئة من قرص الشمس التي هربت من بين الأغصان الكثيفة المتسامقة بعيدًا عن أيدي السجان المتسلطة..

أقبع بداخل قضباني وحيدًا، ألملم أشلاء ذاكرتي فأراني كما كنتُ منذ عهدٍ بعيد، ربما اختلفت القضبان، ضاقت أو اتسعت.. حريري المهد أو أتوسد المخمل، جميعها شكليات..

المظهر الذي يلفت كلّ الأنظار، فيقفون أمامي يطالعونني كأنثى طاووس في داخل حديقة الحيوان..

ولكن من اهتم يومًا بفكّ طلاسم ألحاني، وبحث فيما يخفيه أنين الأنغام؟

كان هذا الغصن المتدلي من شجرة الفيكس التي باتوا يطلقون عليها اسم "البونساي" يتسلل من بين أهداب القضبان فيداعب جناحي ليحرضه على الطيران..

لم أهتم لأمره من قبل ولم أستجب لتحريضه، فكيف لي بالحلم وأنا ما زلتُ صريع هذا السجن وربما نسي أمري السجان..

لم يعد للأيام ملامح تميزها فجميعها بذات القوام، تنسرب من بين أنامل عمرك فتسرق منك الشباب والأحلام وأنت ما زالت في نفس المكان تصارع نسمة هواءٍ باردةٍ في كانون أو لفحة شمسٍ حزيران.

لم ييأس الغصن من صمتي، وعاد يهمس لي بحفيف الأوراق حين تسرب خلالها نسيم آذار العليل..

- ما بك؟

بنبرةٍ يملؤها الشجن، ودمعة تسللت برغم تضييق الخناق؛ فما شعرتُ من قبل بحاجة لإطلاق سراحها؛ فمن لأمري يهتم ومن يحاول مسح هذه الدمعات إذا ما أسقطتها؟

- لا شيء..

أنا بخير..

- هل أنت واثق مما تقول؟

لم تكن كلماته سوى قبضة هوت على حصوني فأحالتها لرماد، وصرتُ أشكو كما لم أكن تعلمت من قبل الكلام ونطقتُ الآن بعد معاناةٍ مع صمتي وسكوني الذي دام لسنوات..

فكيف لحرفي أن يبوح بما كان في شرع الجميع حرام! وكيف أنشد الحريّة وقد حكموا عليها في قلبي بالإعدام!!

أنا الجريح حامل الذنب الذي لم يقترفه، وأنا الشهيد الذي لم يوارى له جثمان..

تنهد الغصن تنهيدة طويلة وكأنما شقت للتو لحاءه فأسُ مزارعٍ يصارع للبقاء؛ فيضحي بآخر أشجاره لينعم بالدفء في ليالي الشتاء:

- أنا مثلك سجين، أنتظر كل يومٍ حكم الإعدام، فجذوري البائسة نبتت بين يدي من لا يرحم، ينشد السعادة في قتل الأبرياء، يتلذذ بتعذيب الضعفاء وبآلامهم يتاجر لينال الشهرة والمكسب.

-

يشذبون أفناني ويقتلون في الروح الشباب ثم يدّعون أنني متقزّم ليس مني رجاء.

فتصيح الساق وقد امتلأت بمشاعر الحسرة والألم:

- يقتلون أبنائي ويمزقون أوصالي لأصير دمية بين أيديهم كمهرج يلتمسون في هزاله النشوة وزهوة الانتصار.

لكنني لا أيأس وكلما قطعوا لي غصنًا نما غيره مئات..

أنا الأمة التي تخبو جذوتها حتى تشرق لكنها أبدًا لا تنطفئ مهما تكالبت عليها الذئاب..

تعود روحي المتحررة لجسدي المُسجون في مقعده ذو العجلات ينتظر أن يأتي أحدهم من خلفي ليدفعه فأعود لغرفة ألفتُ أركانها وألفت عزلتي، ونقشتُ على جدرانها آلاف التساؤلات، ولكنني هذه الليلة عُدت بحلم سأعيشه طيلة الأيام التالية؛ حلم التحليق بجناحين، فيما وراء الخيال بمسافة حلمين: حلم عصفورٍ بالطيران، وحلم أمةٍ بالبقاء..

شهادة المنشأ

على الدرج المؤدي إلى الطائرة والذي يشق عنان السماء ليصل لهذا الصندوق المُحمل بالكثير من المشاعر المختلطة ما بين فرحةٍ ولهفةٍ للقاء الأهل، وما بين حزنٍ وفاجعةٍ لخبر هاتفه به أحد الأصدقاء يعلمه بوفاة والده، والاضطرار للسفر دون تجهيزات بينما أنهار دموعه تنفرط، وذلك الذي يسابق الزمن ليعود لخطيبته ليُكملا إجراءات زواجهما ويجمعهما بيتٌ واحدٌ لعدة أسابيع، ثم يتركها ويعود لمفرمة العمل..

وقفتْ نهى لثوان تتأمل بنظرة يملؤها الحزن والألم كل قطعة وكل شبر يمكن لعينيها أن تجمعها في لقطةٍ أخيرةٍ تغلق بها حافظة الاغتراب وتبدأ بعدها في فتح نافذةٍ جديدةٍ على أرض الوطن..

ولكن أي وطن تقصد؟

وطن الميلاد الذي لم تعرف غيره قرابة العشرين عامًا، أم وطن تحمله الوثائق والأوراق!!

فلم تشفع له زياراتها القصيرة أن تحفر في أعماق وجدانها أية ذكرى له تمنحها صك الغفران لجفائه وعدم شعورها بالانتماء.

أم أنه الوطن الآخر البعيد المنال، الذي نقلته إليها والدتها عبر حكايات جدتها لها دون أن تراه!

سلسلة اغتراب على أبواب الحدود والمعابر والأسوار، تحتاج ألف خارطة لتفك طلاسم الاشتباك وتجمع شتات الأغراب.

لا تدري غلطة من؟

حين سافر والداها منذ زواجهما، وأثمر زواجهما عن ميلادها، فتحت عينيها على نور شمسه الحارقة التي لم تأبه يومًا للهيبها، بل كانت تنعم كل صباح بقبلتها التي تمنحها لها من خلف زجاج السيارة أثناء ذهابها لمدرستها.

وهذا النشيد الصباحي الذي لم تحفظ غيره، وزميلاتها ومعلماتها، وكل ذكرياتها المعلقة في داخل صدرها تئن وجع الفراق.

خفقةٌ صغيرة غزت نوتة اللحن الرتيب في داخل قلبها الصغير لتتذكر أول حادثة حب مرّت بها، وأول لمسة يد، وأول رسالة دسها إليها بين أوراق المذاكرة..

صديق الطفولة وزميل الدراسة..

- نهى، هل ستسافرين حقًا وتتركين هنا؟

قالها بترقب بينما صوته يهتز مترددًا وكأنه يخشى صعقة الإجابة.

- نعم يا نور، يجب أن أسافر..

ردت نهى بحزن وأسى..

واستطردت قائلة:

- ليس لي في الأمر قرار، لقد قرر والداي العودة إلى الوطن.

تأثر نور بكلمات نهى، ولم يجد ما يقول.

هل يذهب لوالده ويخبره بحبه لنهى؟

لم تكن ثمة مشكلة واحدة تعوق طريقهما المأمول؛ فنور الذي يحمل نفس الانتماء لذات الأرض وذات الوطن، يحمل على جبينه جنسية لم يخترها، وانتماءً لأرض لم يعرفها تمامًا مثل نهى، فصارا يختلفان في المنشأ..

نعم، وكأننا مجرد دمى تشابهت في التكوين، ولكنها اختلفت في بلد المنشأ، فصار لزامًا عليها ألا تطمح في انتشار أكبر.

كان نور يدرس في كلية الطب في جامعة نفس البلد الخليجي، وتلك الميزة حظي بها نظرًا لكون والده عضو في هيئة التدريس بنفس الجامعة منذ عشرات السنوات.

وأما نهى فقد أنهت دراستها الثانوية وبدأت دراستها في الجامعة الأمريكية في نفس البلد، ولكن نظرًا لتغير ظروف عمل والدها، اضطرت العائلة للعودة لأرض الوطن..

ولم يكن تحويل أوراقها بالأمر الصعب من فرع هذه الجامعة بهذا البلد إلى البلد التي ينتمي إليها والديها حسب وثائقهما.. "مصر"

ولكن هل كان الدافع لعودة الأسرة فقط تغيير مكان عمل الوالد، وانتقاله لرئاسة تحرير جريدة هامة بأرض الوطن؟

كان هذا هو الدافع المعلن لدى الجميع، غير أن الحقيقة كانت لا تقبل الانتظار أكثر من ذلك، ولم يكن من الممكن إعلانها للجميع لتصير وليمة تتقاسمها الأفواه في تجمعات المعارف والأصدقاء..

لقد لاحظ أفراد الأسرتين ميلاد هذه المشاعر التي بدت واضحة على وجوه نهى ونور حين يلتقيان، فعلى الرغم من نشأتهما معًا، لِقِدَم وتوطد العلاقات بين الأسرتين، إلا أنهما تغيرا منذ فترة وصارت أحاديثهما تنطوي جانبًا بعيدًا عن تجمع الأسرتين.

لم يكن العائق الوحيد اختلاف الجنسية، فلم يشعر نور أبدًا أو نهى بهذا الاختلاف، نظرًا لأنهما ينتميان لنفس الأصول، ولكن ما عجزت اجتماعات الأسرتين عن إذابته واختفاء وجهة الخلاف فيه كان اختلاف المذاهب الدينية، وهو ما كانت الأسرتان تنأيان عن الخوض فيه، أو مناقشته من مبدأ: "لكم دينكم ولي دين" ولكن حانت لحظة الاختبار والاختيار؛ ولم تكن أسرة كل من نهى ونور بهذا القدر من التسامح مع الآخر، على الرغم من الحياة التي جمعتهم عشرات السنوات في ترابط وتآخي، ولكن في النهاية تغلق كل أسرة أبواب عقولها على معتقداتها، وأفكارها ولا تسمح لأحد بمناقشتها.

- ما المشكلة يا أدهم؟

قد يعدل نور عن مذهبه وينضم إلى مذهبنا، ألا تذكر تلك المرات التي ذهب فيها إلى مسجدنا؟

وكيف كان يصلي مع أبنائنا، ويصوم معهم؟

- اصمتي يا سلوى أرجوكي.. لا يمكن أبدًا أن نعوّل على فرضية قد لا تحدث مطلقًا.

تعلمين مخاطر ذلك، وتعرفين جيدًا أن عائلة عزّام وزينة لن توافق على ذلك، ولن يسمحوا لابن من العائلة أن يغيّر مذهبه، حتى وإن وافق عزام وزينة نفسهما.

يجب أن نسافر فورًا قبل أن تتطور الأمور.

وقفت نهى وتسمرت في مكانها، وهي تصافح عائلة نور والدموع تحجرت في مقلتيها، ليست وحدها بل كل العيون فاضت بالدمع، فها هي عِشرة السنوات الطوال تنتهي ولا تعلم النفوس هل ستلتقي بعد؟

على الرغم من الوعود بتبادل الزيارات في الإجازات إذا تيسرت الأمور وفتحت المعابر والحدود.

فعائلة نهى التي تضرب جذورها في غزة تعيش في مصر منذ جيلين، وأما عائلة نور فهم ينتمون لأسرة عريقة رحلت من الجليل واستقرت في الأردن.

كان هذا آخر هم نهى ففي عصر التقنيات المتطورة لن تعدم وسيلة يتواصلان بها هي ونور، ولن تبقى حبيسة أسوار الأسرة، وسوف تفتح كل المعابر على العالم بعد انتهاء دراستها وخروجها للعمل.

فحب القرن الحادي والعشرين يختلف كثيرًا عن حب القرون السابقة؛ فقد ترتعش الأيادي عند مصافحة خلال مقابلة لعمل جديد تخرج بعدها مطمئنة دافئة بعد وعدٍ بالنجاح، في لهفة وانتظار لأول أجر تتقاضاه، وتخفق القلوب بعد ارتقاء درجة في سلم النجاح؛ إذ أن الحب لم يعد يشغل العقول وصار في مراتب تلي النجاح في العمل وإثبات الذات.

ولكن ما كان يشغل كل تلابيب عقلها ولا يدع لها مجالًا أن تستمتع بذلك المنظر الخلاب والطائرة تطفو فوق السحاب، بينما تبتلع الأرض تفاصيل المباني والطرقات وتلتهم الصحراءُ المدنَ في جوفها مدينة تلو الأخرى حتى تتوارى وتتلاشى وتخطف معها سنوات العمر الماضية وتُبقى لها فقط حفنة ذكريات.

حين تكون في وسط المحيط وحدك تناطح الأمواج، وتتحدى الغرق لن تمنحك روحك فرصة لتلقي نظرتك الأخيرة على مسرح الذكريات، وسوف ينسكب كل تفكيرك في فرصة البقاء على قيد الأمل.

وبعد عشرين عامًا لم تعرف فيها سوى أرض واحدة تنتمي إليها تجد نفسك فريسة الشتات..
شتات الوطن، الذي لم تختره وشتات القلب ما بين المفروض وما تحب.
وتقرر حينها استسلامك للواقع، لتبدأ فصلًا جديدًا من فصول الشتات.

استطاعت نهى بصعوبة أن تشق طريقها على أرضها الجديدة، وأنهت دراستها وبفضل نفوذ والدها استطاعت العمل كمراسلة لوكالة أنباء عالمية، ولم تكن صدفةً فقد عملت تحت التمرين خلال سنوات دراستها الأخيرة في مصر في الصحيفة التي يترأس والدها تحريرها، وخلال تلك الفترة قامت بمراسلة عدة وكالات أنباء عالمية ومع تدخل بسيط من والدها استطاعت العمل لدى إحداها.

بينما أكمل نور دراسة الطب وعمل في مستشفى في تلك البلد التي نشأ وتربى فيها، وكانا ما زالا على تواصل هو ونهى، واكتمل مخططهما للقاء على أرض الوطن.

حيث التحق نور بالعمل التطوعي في الهلال الأحمر، وشارك في إحدى حملات الإغاثة وإرسال المعونات إلى الشعب الفلسطيني وسافر معهم وكانت نهى قادمة في نفس الوقت من القاهرة بصفتها مراسلة قادمة لتغطية الحدث لوكالتها..

والتقى الاثنان على أرض الوطن.

لم يكن لقاءً عاديًا؛ فلم يكن كلاهما يعرف شيئًا عن هذه الأرض سوى بعض الحكايات المتوارثة عن الأجداد، وحفنة أخبار عبر الفضائيات.

انشغل نور ونهى بالبحث عن كل ما يربطهما بهذه الأرض، ثم قررا قرارهما الأخير دون رجعة، وأبلغا به آباءهم، وهو البقاء في فلسطين تحت أي ظرف ورغم كل الظروف القاسية، ولكنهما قررا العودة للأصل طبقًا لشهادة المنشأ.

حنــين

تقدمت الأيام، وعبرت في سرعة لم تعتدها، برغم الملل؛ إلا أنها عبرت وكأن الشهر أسبوع، أو أقل..

الجميع ينتظر العيد، دون لهفته المعتادة في كل عام، دون ترتيب المواعيد، دون أي شيء.. يوم كأيّ يوم..

لم تنجح البيوت في أن تنعم بحملات النظافة والترتيب التي اعتادتها في الأسبوع الأخير من شهر رمضان، بل سادت الفوضى واستشرى الإهمال بعد رقود كل أفراد الأسرة في البيوت، فلا أحد يخرج إلا للضرورة القصوى، بينما هذا الوحش الرابض بالخارج ينتظرهم في ترقب لينقض على فريسته ولا أحد يدري من ستكون الفريسة القادمة.

فبعد مرور الأيام الأولى من الوباء وانتشار رائحة الكلور والمعقمات وعبق الكحول في كل مكان، شعر الناس بالملل، وصارت هذه السوائل في حالة ركود تنتظر من يأتي ليفض سكونها وينثر بعضًا منها على سبيل محاربة العدو ونيل فسحة من الأمان.

حتى روائح الكعك التي كانت تهب لتزكم الأنوف الصائمة وتؤجج الحواس حتى انطلاق مدفع الإفطار لتنقض وتختلس بضع حبات تسمح بها الأمهات قبل يوم العيد على سبيل التجربة.

كل البيوت تغير ترتيبها هذا العام، ولكنه لم يكن إعادة ترتيب للأثاث ككل عام، فكثير من البيوت فقدت أحد أفرادها، وبعض البيوت تهدمت أركانها بفقدان الأب والأم أو كليهما، ليخيم الحزن على البيوت وتأبى غيومه أن ترحل وتعتقها.

استيقظتْ على صوت مكبر المسجد يرسل صوته المتألم باكيًا..

الله أكبر الله أكبر..

لم ينتظر الشيخ كثيرًا، لم يكمل تكبيراته وخفت..

لقد همّ البعض بغزو المسجد، ودفعوا الباب دفعًا فغادر الجميع بعد فزع المؤذن وخوفه من كسر القوانين..

دفع أخوها الباب وقد اكفهر وجهه وماج بكل الألوان كأنه لوح رسام يخلط على صفحته ألوانه قبل أن يضرب بفرشاته لوحاته.

ثم حكى لهم كيف عاد مهرولًا حين لاحت سيارة الشرطة من بعيد، دون نفير ينذر بقدومها، لكي يُحاصَر الجميع متلبسين بالجرم المشهود..

- لقد حذرتك، ولم تستمع لكلامي..

انفعل والدها موبخًا أخاها..

تركتهم وعادت لغرفتها دون تعليق..

مرّ اليوم الأول ما بين السرير الذي تأرّق واشتكى طول مكوثها عليه، حتى حفر جسدها النحيل حفرة في فراشه، وما بين نافذتها تطل على الشارع الخاوي، دون أقدام أحدهم تداعب الحصى وتلقيه على أطراف الطريق، أو صيحات الصبية المتذمرين على الامتحانات وقت انصرافهم من مركز الأستاذ سليمان، بعد حصّة بدأها بالتوبيخ لعدم حلّهم الواجب وانتهت كما بدأت لعدم فهمهم الدرس..

دون أصوات المفرقعات ورائحة البارود يعبق بها المكان أيام العيد.

لا شيء جديد، فقَدَ الشارع أنفاسه التي كان يستمدها من همس المارّة، وحكاياتهم التي تترك بعض حروفها معلقة على شجيرات "الفيكس" المحاذية للطريق، ربما تجمعت واستطاعت فك طلاسم لوح الكلمات المتقاطعة ليومياتهم وما تحمله من مشكلات فيلتقطونها في طريق العودة في رضا..

صالَحَ النوم أهدابها بعدما قدمت له فروض الولاء، ودمع الطاعة وأمضت ليلتها تستجديه الرضا، حتى أتاها..

استسلمت للنوم لعلها تلتقي بوجهه في الحلم، واستسلم لها النوم طواعيةً رأفةً بحالها، وهروبًا من هذا اليومٍ..

وما بين النعاس والصحو مسافات أنين لا يصل لمسامع أحد، سوى من ضبط قلبه على نفس ترددات موجة الألم..

لم يتبقَّ من العيد سوى يومين..

استيقظت ولم تصدق كيف تمر الأيام، هل هذا هو العيد؟

خرجت من كهفها لتجد أسرتها يلتفون حول طاولة الطعام، وكأنهم اعتادوا غيابها، فلم يعرها أحدهم اهتماماً..

التقطت قطعةً من البسكويت الذي طالما كانت تحبه وتتسابق مع أخيها من ينال منه أكثر، كان مُكدّسًا على الطبق وكأنه لم يمسسه أحد، كانت جارتهم أم رياض قد أهدته لهم قبل يومين، بعدما كسرت والدتها عادتها هذا العام وعكفت عن صنعه لهم..

ذاب البسكويت في فمها وأحست بطعم السكر مُرًّا في فمها بمرارة الأيام التي تخوضها؛ فابتسمت ابتسامة ساخرة وعادت لغرفتها..

نظرت لمرآتها فوجدت وجهًا شاحبًا يطل عليها، ساءها ما وصل إليه حالها..

ذكرها هذا الوجه بآخر صورة أرسلها لها إسلام من العزل بعد إلحاحها عليه؛ فقد اشتاقت لرؤيته التي باتت في طور المستحيلات.

- لا تخافي حبيبتي، سأكون بخير وننفذ كل ما خططنا له، وتصبح هذه الأيام العصيبة مجرد ذكرى نحكيها لأحفادنا.

كانت ابتسامته التي تشق ثغره بصعوبة تنفي كلامه الذي تخلله وابل من السُعال.

- نعم حبيبي، ستكون بخير إن شاء الله.

لم تكن متأكدة مما تقول، ولكنها لم تملك سوى هذه الكلمات التي تواسيه بها وتسكب على قلبها بعض الصبر لتحتمل هذه الفاجعة.

وبالفعل كانت مكالمة الفيديو هذه هي آخر اتصال بينهما، وبعدها ساءت حالة إسلام وانسحب من معركته الأخيرة معلنًا انسحابه من الحياة.

التقطت حنين مساحيقها لتعيد لوجهها بعضًا من رونقٍ فقده، ومشطت شعرها الأشعث بعدما خاصمته الفرشاة لأيام..

وفتحت دولابها لتلتقط ما جهزته للقائه في العيد من جديد الثياب..

كان ثوبًا يحمل من الروض أجمل أزهاره وكأنه للتو للربيع تبسّم..

ثم عادت لمرآتها فوجدت أخرى غير التي رأتها منذ دقائق، وكأن الحياة فيها دبّت..

يومان فقط يفصلانها عن الموعد المحدد ليوم زفافها هي وإسلام، ولكن أين هو الآن؟؟

أحست بتلك الحرارة التي سرت في يديها وهما بين أحضان يديه بينما يخبرها عن ترتيبات يوم الزفاف التي أعدها والمفاجأة التي أخفاها عنها بشأن شهر العسل وأين سيقضيانه.

- أما زلت مصرّ أن تخفي عني أين سنقضي شهر العسل؟

كانت الفرحة تتراقص في عينيها ويأبى جفناها أن يرتخيان حتى لا تفتقد هذا النور القادم من ثغره بينما يهمس هو لها:

- حبيبتي، ألا تثقين في ذوقي؟

فترد مبتسمةً:

- بلى..فيكفي أنك اخترتني..

تعلو ثغره ابتسامة تزيد نوره وبهاءه.

كان إسلام طبيبًا في قسم الأمراض الباطنية في مستشفى المدينة التي تقطنها حنين، والتي تبتعد عن القاهرة مسافة 60 كيلومترا كان إسلام يقطعها يوميًا ذهابًا وإيابًا للعودة إلى منزل أسرته بالقاهرة.

وقد التقت به حنين أول مرة حين ذهبت لقضاء فترة التدريب الميداني الخاصة بها بعد أن أنهت دراستها في كلية الصيدلة.

وبعد عدة لقاءات في المشفى تبادلا فيها نظرات الإعجاب دون أن يتحدثا في ذلك، سأل إسلام زميله الدكتور أحمد عن حنين؛ فهو من نفس المدينة، وعرف بعض المعلومات عنها وعن أسرتها، وبالفعل تحدث إسلام مع والديه وتقدم لخطبتها.

كانت كل الأمور تسير وكأنها مرسومة كما أرادا، اتفقت الأسرتان على كل أمور الزواج في هدوء، دون حدوث المشكلات المعتادة بين الأسر عند الخوض في هذه التفاصيل والتي ربما تنتهي بهدم حلم شابين في نيل فرصة بناء بيت سعيد.

مر عام كانت أيامه من أجمل الأيام التي مرت على حنين في عمرها، أسست فيه هي وإسلام عُش زواجهما السعيد، ولم يتبقّ سوى مرور شهر رمضان، ليُتما تتويج فرحتهما بالزفاف في رابع أيام العيد.

ولكن لا تأتي الرياح دائمًا بما تشتهي السفن، فلم تمر جائحة الوباء كما توقع الجميع، ولم تؤثر حرارة الجو على هذا الفيروس اللعين وتهلكه؛ بل زادت الحالات، وزاد كفاح إسلام وزملائه في معركتهم لمحاربة المرض، ولكن القوة التي يهاجمهم بها هذا الوحش كانت أقوى من احتمال إمكانياتهم المتواضعة فسقط الكثير من الشهداء من الطاقم الطبي وكان من بينهم إسلام.

انهارت حنين، وبعدما اجتازت المرحلة الأولى من صدمتها بعدم تصديقها لما حدث وذهولها من هذا التوقيت الذي سلبها فرحتها قبل أن تكتمل، وكأن القدر يعاندها، انزوت بعدها لتدخل في مرحلة أخرى انسحبت فيها من الحياة وآثرت البقاء مع ذكرياتها، تعيشها بمفردها في غرفتها مع طيف إسلام الذي بات لا يفارقها.

ولكن مع قدوم العيد واقتراب الموعد المحدد لإتمام زفافهما زادت حالتها سوءًا وانهارت كل حصون الوهم التي شيدتها من حولها وافتقدت طيف إسلام دون رجعة.

وبين الفينة والأخرى تلتقط حواسها طرف ذكرى عابرة تعيد إليها رائحة الأيام الماضية؛ تذكرت يوم التقت به أول مرة، وبقايا نبضه التي تركها على أناملها بعد السلام، قبّلت أناملها، وتحسست اسمه محفورًا على خاتم وحيد مازال يحتضن إصبعها.. ثم أمسكت بهاتفها وفتحت على اسمه في دفتر رسائلها لتكتب له هذه الكلمات:

إن لم تكن حاضرًا بجسدك؛ فروحك ما زالت تحلق من حولي في السماء..

ثم انهمرت دموعها بعدما تذكرت أن رسالتها لن تصله؛ فقد رحل مع من رحلوا في صراع هذا الوباء..

لطخت وجهها، ثم أزالت مساحيقها وألقت بثوب العيد وارتدت ملابسها وقررت الذهاب للمشفى لتكمل مسيرة إسلام وتساعد المرضى؛ فلا حاجة لها للحياة بدونه؛ فإن قدّر لها الله النجاة بعد هذا الوباء فيكفيها أنها سارت على خطا إسلام، وإن فشلت في معركتها فسوف تلقاه ويتزوجان في مكان أجمل.

حسن وحسين

تملل الصندوق الأبيض المدجج بالمعقمات محمولًا على الإطارات الأربعة، وما زالت تئن كلما تعثرت أثناء عبورها للحُفر العتيقة التي شكلت ندبات لا تشفى على وجه الطرقات..

هذه الطرقات التي غطت وجهها تجاعيد الزمن وامتلأت بالأخاديد التي باتت وهي أصدقاء لا يفترقون بمرور السنوات.

وكلما فتح أحدهم باب الصندوق الخلفي قابلته المحفة الحديدية المتهالكة بعدما احتضنت عشرات بل وآلاف المصابين، وكم من مرة تألمت وتأوهت بنشيجٍ لم يترك في زوايا الصندوق صدى، لتواريه خلف ضجيج ما تطلقه صافرة هذا التابوت الزاحف على الطريق.

في إحدى الزوايا الداخلية وخلف أسطوانة أوكسچين فقدت عمرها الافتراضي منذ سنوات ولم يهتم لأمرها أحد أو يفكر أن يعيدها إلى مأواها أو يستحضر أختًا لها، انزوت قطرة دماء أحدهم وعانت الأمرّين ما بين الزلازل التي تخلفها صدامات الإطارات بالحفر، وبعض المحاولات البائسة لجندي التنظيف حين يوجّه نحوها مدفعه المحمل برذاذ الماء ليزيح أشلاء جيوش الدماء المتناثرة بعد معركة أحدهم مع غول الموت.

في كل الأحوال النتيجة واحدة، إذا ما انتصر وعاد للحياة أو خرّ مهزومًا؛ فلا تختلف الأمور كثيرًا.. كلهم أموات فوق الأرض أو تحتها..

تيبست أوصال القطرة وأصبحت كحجرٍ من أحجار قدماء المصريين يسكن زاوية الصندوق، ولا يجرؤ أحد على فصله، غير أنها من حين لآخر تستعيد ذاكرة إنسانها "حسن" وآخر مشهد في حياته ما زالت تذكره، من ميدان التحرير، وليالي إقامته هناك وأصوات المنشدين تتخللها هتافات الشباب "تحيا مصر" ومن بعدها "ارحل.."

جلُّ ما تحاول أن تستحضره في هذه الليالي الباردة، حين كانت تسري في دمائه تشجعه على البقاء قيد الأمل، على النضال ليحيا ويرى أحفاده من بعده..

ولكن في إحدى الصباحات التي استعارت من جهنم لفحةً ومن وهجها جذوةً، ألقت بها في ميدان آخر..

وصل الصندوق الأبيض وصخب صافرته يعلو شيئًا فشيئًا ليفسحوا له الطريق حتى وصل، وهبطت على المحفة التي أصابها الكِبر في مقتل جثة شاب آخر..

سالت الدماء تشق أوديتها في هدوء لا مثيل له، حتى استكانت وتوقفت بعد وصول آخر قطرة للركن ذاته، فاحتضنت هيكل القطرة الساكنة فأهدتها بعض الدفء ومنحتها قبلة الحياة مرة أخرى..

لم تشعر قطرة "حسن" بالغربة، وحين أفاقت سألت القطرة الأخرى عن كينونتها، وإنسانها..

- من أنتِ؟ ومن أين جئتِ؟

- قدمتُ من ميدان رابعة العدوية..

لشاب يدعى "حسين".

فسألتها:

- كيف أصيب "حسين"؟

- لا أحد يدري.. كان وابل النيران يمطرنا من كل صوب، نيران صديقة تأبى هروب أي فرد، ولسان حالهم يقول:

لن يخرج من هنا أحد..

خدعونا وقالوا أننا نرفع راية الإسلام ولكن رايتهم كانت كاذبة.

ثم نظرت قطرة "حسين" لتسأل قطرة "حسن":

- وأنتِ..ما قصتك؟

فردت وكأنها استرجعت وجع السنين في ثانية:

- كانت كل الأمور تسير كما يجب، وخضع النظام لرغبة الميدان وفجأة انهالت علينا سيقان وحوافر الجمال والخيل، وكأننا عدنا مئة قرن للوراء..

وقع حسن وشُجّ رأسه تحت حافر أحدها ولم تعد لصدره شهقة الوداع.

تعجبت كلتاهما كيف أفاقت الثانيةُ الأولى، ولكن لا عجب؛ فحسن وحسين توءمان فرقتهما الميادين واجتمعا رغم أنف الجميع في حياة ثانية.

أفرغت المحفة حمولتها وعادت وقد زادت تجاعيد وجهها شقًا لا يداويه خيط جراح ولا إبرة معالج..

وأطلق العامل مدفعه المدجج بالماء ليزيح دماء حسين من الصندوق؛ فاحتضنت القطرتان بعضهما وتجمدتا في زاوية الصندوق تنتظران تدابير القدر.

بعدما سئمتا تصرفات البشر.

نزيف خريطـة

مطأطئًا رأسه مع انحناءة خفيفة في ظهره رافقته منذ صِغره فكانت مصدرًا لنظرات السخرية والتندر من أقرانه، مما جعله يؤسر الانطواء والانزواء على نفسه بجانب سور المدرسة المتهالك ليخفي ظل ظهره بين أحضان هذا السور العتيق..

بيدَ أن هذا الانطواء كان مصدرًا لانكفائه على دروسه وتفوقه فكان يشفع له عند المدرسين ليتناسوا أمر تقوّس ظهره الخفيف ويكون محل ثقتهم.

وكانت هذه العلاقة المميزة بينه وبين مدرسيه سببًا في عشقه لمهنة التدريس، فأحبها وتخصص فيها بعد تخرجه.

دخل ومعه هدوءه المعتاد إلى غرفة المدرسين، فلم يكن بها سوى الأستاذ محمد المدرس الأول للغة العربية، فآثر أن يحييه دون سلام، فرفع يده ملوحًا..

-صباح الخير أستاذ محمد..

- صباح النور أستاذ عبدالسلام.. كيف حالك؟

فغمغم عبدالسلام بكلماتٍ لم يسمعها سواه، بينما يسحب بيده هذا الكرسي المتهالك الذي يتحمل جسده النحيل بالكاد من خلف طاولة تدثرت بغطاء من القماش القطني نثرت عليه الأستاذة سناء مدرسة الرسم بعض الأزهار لتخفي معالم الطاولة، فتكتسي بثوب الوقار وتبدو وكأنها مكتب..

تردد صدى غمغمات عبد السلام في صدره عدة مرات بعد تحيته للأستاذ محمد..

فلم يكن سؤال الأستاذ محمد له عن حاله سوى نفخة في رماد عقله، لتبعث الروح في نيران أفكاره الملتهبة فكيف أصبح حال السلام الآن!!

لم يكن بالغرفة سواهما، حيث انصرف باقي المدرسين لفصولهم، وكان الأستاذ محمد منهمكًا في الكتابة، يبدو أنه يجهز أسئلة اختبار الشهر..

حينها أدرك عبد السلام أنه يتعين عليه تجهيز قائمته بأسئلة اختبار مادة الإجتماعيات..

أمسك بحقيبته السوداء التي تخلت عن سوادها الفاحم بمرور السنوات لتبدو في لون رمادي شاحب ذكّره بسماء الكويت حين حرّمت غيوم الغازات المنبعثة من حريق آبار النفط على شعاع الشمس أن يحتضن رمالها، بعدما أشعلها الجنود العراقيون قبل انسحابهم من الكويت.

كانت شهورًا قاسية، اكتمالًا لقوس حظه العاثر؛ فلم تكن قد مرت على إعارته للكويت سوى سنة واحدة واجتاح الجيش العراقي دولة الكويت قبل سفره لقضاء إجازته في مصر بأيام..

أخرج من حقيبته مجموعة أوراق "فلوسكاب" وقلمًا من نوع الحبر الجاف ذو جسد شفاف فبدت قناته الداخلية وما زال بها بعض الحبر القليل، ذكّره بقناة مجرى نهر دجلة التي جفت أوصالها واهترأت جوانبها بعدما انتشرت السدود عند منابعه فمنعت عنه الحياة..

أترى سيكون هذا حال نيلنا بعد عدة سنوات؟!

أمسك بذيل هذه الفكرة وألقى بها في حاوية مهملات رأسه ليحاول البحث عن أفكار للأسئلة التي سيكتبها.

أغلق عينيه محاولًا التركيز، بعدما خطفت بصره حركات الأستاذ محمد في الهواء وهو يرتب الجمل لإنشاء قطعة إملائية تعجز أنامل الصغار عن نثر همزاتها على أطراف الحروف أم تتركها طافية في الخلاء.

قرر أن يبدأ بسؤال في الجغرافيا، وعليه فليبدأ برسم خريطة الوطن العربي..

تذكر حينها النقاش الحاد الذي دار بينه وبين أحد أساتذته في الجامعة حين سأله يومًا أثناء إحدى المحاضرات عن احتفاظ الدول العربية بالحدود التي رسمتها لهم الدول الاستعمارية، بعدما رحلت عنهم؛ فقبل عشرات القرون كانت الشام والعراق دولة واحدة، وكانت مصر والسودان دولة واحدة وكذلك الجزيرة العربية ودول المغرب العربي، لم تكن هناك حدود ولا فواصل، دون العودة لماضٍ أقدم كانت مصر فيه تحكم بلاد الشام وتتوغل في إفريقيا حتى منابع النيل العظيم..

فلماذا لا نعود كذلك؟

أو على الأقل نلغي عمل تأشيرات الدخول والخروج من بلد لآخر كما يحدث الآن في الاتحاد الأوروبي!!

- اسكت.. أنت لا تفهم شيئًا في سياسات الدول، من تظن نفسك لتتحدث في مثل هذه الأمور؟

كان هذا رد الدكتور عليه، والعصبية والتوتر كانا باديان على وجهه.

عاد عبد السلام من هذه الذكرى المؤلمة، دون أن يظفر بإجابة شافية على مدار أربعة سنوات، مدة دراسته وفي كل عام يلقي نفس السؤال على أستاذ مختلف دون رد..

قرر أن يبدأ السؤال الأول برسم خريطة للوطن العربي، وبدأ في رسم الخطوط الأولى للحدود الشمالية؛ فنزف القلم قطرة حبر كبيرة وكأنها دماء السوريين النازحين من سورية إلى المجهول على الحدود التركية، اختلطت بنزف فتيات سنجار تحت أقدام الدواعش بكل صلف وخِسّة.

فارتعشت يده وتوقف القلم..

فقرر أن يرسم الحدود الشرقية وهنا توقف مرة أخرى عند تسمية هذا الخليج الذي يشكل حدود الوطن العربي الشرقية، فهل يسميه باسمه الذي اعتدناه "الخليج العربي" أم يكتبه نزولا على رغبة محرك البحث "جوجل" الذي صار محركًا لحياة البشرية؛ فلم تعد تخفى عليه خافية، وكلما أردت السؤال عن أي أمر يخصك أو يخص أي شيء تجده يجيبك في ثوان؛ وربما إذا ما افتقدت أسرتك الاتصال بك سألوه عن مكانك فأرشدهم في الحال.

نعم فقد اختار له جوجل اسم "الخليج الفارسي" فالعرب لا يستطيعون الحفاظ على مقدراتهم..

أخرج عبد السلام منديله ليمسح دمعة فرت من عينيه قبل أن يلحظها زميله محمد، واستكمل الرسم حتى وصل لبلاد اليمن فنزف القلم مجددًا ليغطي سفوح جبالها بحبره، فدماء شهدائه تغطي كل مكان، لحظتها تراءت له صور الأطفال الصغار يتلوون من الجوع والمرض والنساء الثكلى دون مأوى..

تعب عبد السلام كثيرًا وزاد خفقان قلبه فأخرج قرص دواء من أحضان حقيبته ليرقد تحت لسانه ربما ساعده على تخطي هذا الطوفان من المواجع..

فقرر الانتقال إلى الجزء الإفريقي، عابرًا عن طريق فلسطين ومنها إلى سيناء..

تذكر كم الوجع والقهر الذي نال منه ومن قلب كل عربي بعدما استُبدل اسم فلسطين في كل الخرائط ليحل محله اسم الكيان الصهيوني، وما زال العرب لا يحركون ساكنًا..

مر القلم بصعوبة يتحشرج الحبر في عبوره محاولًا اجتياز سدود الحقد والكراهية وتبادل الاتهامات..

مرت أمام عينيه كل هزائمه الصغيرة أمام نظرات ازدراء زملائه لتجتمع معًا وتشكل غيمة كبيرة تطفو فوق سماء الوطن.

أحس بالضيق وكاد يختنق، ففتح زر قميصه العلوي بعدما ترك علامة واضحة على عنقه تكاد تضاهي تلك العلامات التي يحفرها حبل المشنقة في عنق مجاهد كل جريمته أنه صرخ في وجه الاحتلال رافضًا وجوده، وابتلع في جوفه جرعة هواء كبيرة لعلها تطفئ نيران حنقه، ثم التفت لزميله الأستاذ محمد ليسأله:

- أعطني جملة مفيدة يكون الوطن العربي فاعلًا وليس مفعولًا به..

فرد عليه الأستاذ محمد قائلًا دون تفكير:

- سقط الوطن العربي في مستنقع الجهل والفساد.

بدأ الأستاذ عبد السلام يخطُّ الجملة: سقط الوطن العربي...

حينها انتهى حبر القلم ولم يكمل الجملة، وانتهت أنفاس الأستاذ عبد السلام، ولم تفلح محاولات قرص الدواء أن تنظم خفقات قلبه أو تنعشها، وتهدأ روحه لعلها تنعم ببعض السلام في عالم آخر.

تمت بحمد اللّه.

د. أمل درويش.

الكاتبة فى سطور



د. أمل درويش

كاتبة روائية

كاتبة صحفية

صدر لها

رواية أسماء الفائزة بلقب أفضل إصدار فى مسابقة مؤسسة النيل والفرات 2019

رواية عهد

بالإضافة للعديد من المقالات والقصص القصيرة المنشورة في الصحف الورقية والالكترونية في مصر والوطن العربي.

حاصلة على لقب أديبة النيل والفرات لعام ٢٠١٩

حاصلة على لقب فارس الإبداع العربى 2020

محتوى الكتاب